الطبعة الثانية

محمد الأحمري

التّزلّف بالتّسلّف

أواصر

بسم الله الرحمن الرحيم

التَّزَلُّف بالتَّسَلُّف

محمد الأحمري

أواصر

الفهرسة أثناء النشر- إعداد أواصر

الأحمري، محمد.

التزلف بالتسلف / محمد الأحمري.

168 ص. ؛ 21.5 سم.

ISBN 978-2-940776-03-0

1. السلفيون (دعاة). 2. الإسلام – دعوات سلفية. 3. السلفيون (دعاة) – النشاط السياسي. 4. الإسلام والغرب. 5. الحركات الإسلامية. 6. الإسلام – حركات الإحياء والإصلاح والتجديد. أ. العنوان.

297.814

الطبعة الثانية

2024م

«الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي أواصر»

جميع الحقوق محفوظة

©Muhammad Alahmari

أواصر

Association Awaser (Liens) Chemin des Vignes 2bis
Postcode: 1209 - Geneva - Switzerland
www.awaser.ws

المحتويات

مقدمة 9

التزلف بالتسلف أو سلفيتان لا تنقذان 15

تعريف السلفية 20

الابتسار السلفي واضح 24

التسلف بوصفه خيالًا 25

عن الفهم الصعب أو «المستحيل» للتاريخ!! 26

ضعف الروح وانحراف مساراتها 33

التزلف للعوام والتزلف للسلطات 34

التزلف عند السلف 40

أثر التزلف للجماهير في المسيحية 40

التزلف السلفي والتزلف الليبرالي 42

التسلف المبتور 43

أسس السلفيتين: غياب الدور العلمي والعقلي 44

جنتان وطريقان 45

ضعف الحاضر وتضخم الماضي 46

سيطرة الماضي على المستقبل 47

التعلق بالأشكال وغياب المعاني 49

البحث عن المخرج في الماضي وليس في بناء خطة
ولا رؤية جديدة للمستقبل 49
ابن تيمية أنموذجًا لفكرة مرفوضة في زمن ضعيف 50
أفكار زمن القوة وثقافة مجتمع القوة وثقافة زمن الضعف 51
مخدرات المثقفين 52
إما المعرفة وإما المنفعة، أو صراع الحقائق والأخلاق 53
تضخم الخلاف الجزئي 57
الإشكالية الزمنية: حتمية وقوع المقلد في خطأ زمني 58
الموروث البشري مرجعية غير ملزمة 60
التزلف بالتسلف 61
في سوق السياسة 61
وتباعان في سوق المال 62
وإذا كانت السلفيتان لا تنقذان فما المخرج؟ 65
الخلاص إبداع واتباع 68
التوجه نحو المستقبل 71
بين الاقتداء والتقليد 75
الملحق الأول: هاتوا كتاب الزور أقرئونا 77
الملحق الثاني: كلمة مؤتمر إسطنبول 83
الملحق الثالث: التسمم بالغرب 103
الانفصام والحرية 110
شرنقة القومية 111
المستعمر والدين 115
قهر علماء الإسلام 116
الحكم القوي في المستعمرات 117
مظاهر تبعية يسمونها تطورًا 118
أتباع ولا يشعرون 120
الوعي وسماسرة التفرنج قسرًا 121

عن السكان..... 122
البنوك والاقتصاد والمؤسسات والمستشارون..... 124
الديمقراطية 126
الجيش..... 127
الأمن وتصدير البلطجية 128
التعليم 131
مبتورون ولا يفهمون..... 133
التغرب وداء كراهية الحكومة 136
الملحق الرابع: النفس المبتورة 141
كلمة عن الكتاب والكاتب..... 142
عقول المتزلفين المتسلفين..... 147
الترابط بين التسلف العلماني والحكومات المعاصرة..... 150
التفرنج تسلف متزلف..... 152
التعلق بالزعماء 153
القدوة بديلًا لقدسية الزعيم أو الإمام 154
أزمة هوية المتسلف للغرب..... 155
قبل النهاية..... 156
هل صنعت السلفيتان تخلفًا عندنا؟..... 158
سحق المجتمع والمعتدلين بين التسلفين 162
خاتمة..... 167

مقدمة

بدأت بعض أفكار هذا الكتاب قبل أكثر من ثلاثين عامًا حين قابلت شيخًا سلفيًّا له مكانته وكانت لنا حوارات. ولأنه قريب من سِنّي تحدثنا عن أشياء كثيرة، حينها ذكرت له فكرة فحاول قتلها، مستنكرًا لها، وقال وقتها مبررًا استنكاره بسؤال: هل لك من سلفٍ فيما قلت؟ قلت: لا أدري، ولكني أتوقع أن ما أقوله صحيح ولا يعارض شرعًا ولا عقلًا؛ فرد عليّ بأنه ليس لي حق في ذلك، وأنه لا ينبغي أن أقول شيئًا ليس لي فيه سلف. ويبدو أنه ظهر له من نفسه حينها أنه أصاب، وأثبت لي ولنفسه خطأ ما قلت.

مرت الأيام وما زالت هذه الكلمة ترن في الذهن وأفكر في صحتها وفي أثرها: «هل لك من سلف فيما قلت؟». وقد تبين لي أن هذا الاعتقاد وما يتبعه من ممارسات كان يؤمن بها موقف خاطئ، ولكني زدت من التأمل فتبين لي أن هذا الرأي موقف فكري سائد في مجتمعاتنا، خاصة بين المثقفين، يشترك فيه السلفي والصوفي من الإسلاميين، ويشاركهم بتعصب أكثر في التسلف تلك المجموعات التي تسمي نفسها يسارية أو شيوعية أو ليبرالية، فهم أكثر تعصبًا وتسلفًا، وكذلك أصحاب الأفكار العدمية أو اللادينية في مجتمعاتنا، حيث

يندر جدًّا من لا تجده متسلفًا موتورًا ضد غيره، فهذه العقلية هي المسيطرة على مثقفينا وفي مجتمعاتنا، وتستمد مشروعيتها من سلف سابق سواء أكان مسلمًا أم نصرانيًّا أم ملحدًا، يمينيًّا أم يساريًّا؛ فالأمر الجامع هو التسلف، أي الوفاء لقوم آخرين سبقوا بباطل أو بحق. وإذا كان العقل البشري بطبيعته يحرص على غرس نفسه في تراث قديم، وقد يبدع في التعامل مع تراثه فيأخذ منه ويدع، إلا أن غياب الإبداع في التسلف السائد في عالمنا هو ما يجمع بين الطرفين. فإذا تحدثت مع متزمت ملحد أو لا ديني، أو متفلسف مقلد لفيلسوف، أو شيخ متزمت في تصوفه أو في سنيته، فسرعان ما يظهر لك بجلاء تزلفه للماضين أو لأحد منهم، سواء أكان شخصًا أم مدرسة أم مذهبًا، وفي جانب منه خضوع للقوة الحكومية السلفية في بعض عالمنا، أو للقوة الغربية، وهذا تزلف صارخ، فمن صنع السيارة والطائرة والحاسوب والإنترنت هو أولى عند أتباعه بالتسلف له، كما أن متسلفي الإسلام لهم مبرراتهم أيضًا في التسلف، كالأصل والتاريخ والبيئة المسلمة والجغرافيا.

ولذا فما نشاهده من صراع فكري في المستعمرات الغربية أو شبه المستعمرات هو في غالبه صراع سلفيات، لا صراع وعي وإدراك. ولو قلت للإسلاميين أنتم مقلدون متسلفون لأنكروا عليك طريقة تفكيرك، ولو قلت الكلام نفسه لليبراليين أو لماسونيين أو لشيوعيين لاحتجوا عليك بأن هذا هو الحق ليس فقط كما يرونه، بل كما يجب أن يسير إليه مستقبل شعوبنا، ثم يفرحون ويحتفلون بسذاجة لأي نأمة انتصار يرونها ويقولون هذا هو المستقبل، وما هم إلا في شرنقة أحاطوا بها أنفسهم؛ فأغلقت عليهم وازدادت جدرانها صلابة مع الأيام، بأوهام أدلة وتفكير وتسلف أو توثيق للنصوص، ومن خلال هذا الانغلاق العقلي أصبحوا يحكمون على العالم خارج شرنقتهم. وقد سبق أن

خضعت لمحاكمة شرسة قبل نحو عقدين لما صرحت للصحافة بأني «مسلم ما قبل التقسيم»، وكانت محاولة التصنيف غارقة في البحث، فعند هذا الخارج علينا أفكار يمكن تصنيفها ليبرالية وأخرى سلفية وغيرها، وكنت منسجمًا مع ما قلت آنذاك وربما اليوم.

هذا الكتاب زيارة لتلك الأفكار تأتي بعد زمن، وقد لاحظت أنها توسعت بحسب ما تعرضت له وما لاقيت وما قرأت، وأعلم أنها لا تعجب السلفيين على مختلف الأطراف. وقد سمعت مرة عربيًّا يرى نفسه متفلسفًا، فإذا هو يرد على مخالفيه بأنهم قد خالفوا فيلسوفه المفضل، أو لم يفهموا فكرته التي انتمى إليها. وأطرف من ذلك قول أحد المتطرفين في تسلفه لكانط حين قال: «لن يحرر فلسطين إلا من قرأ كتاب **نقد العقل المحض**»، وذلك لغرقه في التسلف الإلحادي أو المسيحي. قلت في نفسي: أليس أتباع محمد بن عبد الوهاب أو داعش أو الغزالي أو ابن تيمية يفكرون تمامًا التفكير نفسه؟ أليس خاضعًا في عقله الواهم لقوة الغرب أو لغربة أسمائهم أو لجدتها؟ فقد نصب من نفسه سمسارًا لهيجل أو سارتر ومن تبعهم أو لمن نقل لنا آراءهم.

كما أن من طباع السلفيات المتحاربة الجواب بالتطرف عن بعضها بعضًا، وحين تحتفل بانتصارها تنسى أو تغفل عن انتقام الأفكار المقهورة، فإذا تطرف الشاه في تغربه وتقليده وبحثه عن سلف وثني فارسي قديم معاد للإسلام، فقد تطرف الخميني وحزبه في التمسك بما رأوه سلفية إمامية، وإذا تطرف بعض ملوك أفغانستان السابقين في تبعيتهم للغرب ومحاولة سلخ أفغانستان عن إسلامها، فقد كانت طالبان هي الرد عليهم، وإذا حاول الاشتراكيون والقوميون في مصر محاربة الإسلام بالتسلف للفراعنة، فقد جاء الرد في

حركة تدين هائلة في المجتمع المصري، وما ظهور منظري الجهاد والقاعدة ثم انتخاب المصريين لرئيس إسلامي إلا الجواب عن تلك التطرفات. وكذلك تطرف القوميين واليسار والبعثيين والنصيريين في سوريا كان جوابه موجات من المتشددين الذين كانوا في الثورة. فمن يزرع فكرًا متطرفًا معاديًا فسيحصد ظهور خصومه منتقمين عاجلًا أم آجلًا، ولذا كان الاعتدال دائمًا جحيم التطرف، ولم يكن التطرف إلا زادًا لولادة تطرف مضاد.

فهل نستطيع تحذير متطرفين في تبعيتهم للغرب أو متطرفين في تبعيتهم للتاريخ أن يقلعوا عن تطرفهم؟ الذي يبدو لي أن الموتور والخاسر سابقًا، أو الذي يرى أنه كان هامشيًّا في تجارب سابقة يصعب عليه الاعتدال، فهو متطرف يسعى لهزيمة طرف ويخيل إليه أن تصرفاته حاسمة، وما هي إلا صناعة لخصمه المتطرف، وهذا من أسباب القلق والتطرف في مجتمعاتنا، فكل يأتي للحكم للقضاء على تطرف سابق ويفشل؛ لأن هذه الظاهرة لا تعالج بنقيضها، بل باعتدال من صناعة داخلية، وليس بتسلف مضاد.

في النصوص التالية إطلالة على عقد التسلف وتزلفه للأقوياء في القديم والحديث، فمحاربة هذا التسلف الاعتدالَ في المجتمع وفاءً لأمم سلفت منا ومن غيرنا فيه من الخداع للنفس وللناس ما يبطله، والوفاء الغبي لأسلاف في الغرب أو الشرق يعطل العقل ويشله. فلا بدَّ من تحرر مسبق داخلي يسمح بعقل نقدي. ولو قارنت تصرفات خلفاء كعمر وعثمان وإقدامهم على تصرفات فيما يخص الإدارة المالية زمن عمر، أو الموقف من المصاحف المضطربة زمن عثمان، للاحظت إبداعًا لا يخضع لمجتمعهم ولا لسلف عندهم ولا عند غيرهم. هذا التفكير جمد في عصور تالية وأصبح غريبًا، إذ يمكن أن يحدثك المتسلفون عن

أي شيء سوى إبداع القادة الأول في إطار مصالح أمتهم؛ لأن الإبداع محظور فكريًّا وواقعيًّا عند المقلدين. لذا كان الراشدون يقدمون على أعمال بلا سلف لهم، ثم كان فيما بعد عصر التأسيس من حرصوا على التسلف بأي طريقة، وأثبتوا صحة مواقفهم لا من قرآن ولا من سنة في الغالب، بل من صحة تجارب من سلف، وكذلك المتغربون حين يثبتون صحة مواقفهم من سنن سلفهم الغربي.

هذا الكتاب ليس المقصود منه اتخاذ موقف من سلفية محددة، بل هو نقد للفكر المتسلف، ولو قرأه أحد أتباع هذه السلفيات ملتزمًا بولائه الشديد لمدرسته لامزًا متسلفين غيره فسوف يخيب ظنه.

محمد الأحمري

01 يونيو 2024

التزلف بالتسلف
أو سلفيتان لا تنقذان

لم يقم المجتمع الدعوي للوهابية مع خصومه في الخارج، بل مع خصومه في الداخل. وكانت هناك نقلة للعمل والبعد عن الجذور، فترى التشنيع بالصوفية والشيعة لا يتناسب مع التشنيع باليهود والنصارى، ثم بسبب القصور الفكري ومجتمع النص المجرد عن التعليق، وقد يكون النص هو التعليق على خواطر الشيخ، فالنص ساع في الخدمة لا مؤسسًا.

أن تأخذ الناس بالحسنى إلى ما تعتقد من الحق، فهذا رفق أمرنا، وأن يصبح الحق الذي تقوله مدعاة للخلاف وللشقاق، فهذا من طبيعة الحق، فهو مفرق، والحق أهم أسباب التنازع، والقرآن من أسمائه «الفرقان»، وقد اشتكت قريش بأن ما جاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ فرق بين الأب وأبيه، والزوج وزوجه. ومن يهدف للنزاع يفشل، ومن يصر على التظاهر بالوحدة بين الحق والباطل، والضلال والهدى يخادع نفسه والناس، وإن كنَّا نقع في الباطل؛ فخير لنا وللناس أن نعرف وأن يعرفوا الخلل، خير من أن يتوهم المبطل أن الحقَّ معه، وأن يسكت صاحب حقٍ

رغبة في وحدة الفكرة والتظاهر بها. وقد يكون من الفقه في التعامل مع الناس أن تواجههم بالحق الذي لم يعتادوه، لتخرجهم من ظلمات عادتهم، واستسلامهم لأفكار آبائهم، وليصلوا للحق، أو تُبلِغهم ما تراه حقًّا، فإن لم تكن على حق ظهر ما أنت عليه؛ «كان سفيان (الثوري) نعم المداوي، كان إذا دخل البصرة حدَّث بفضائل علي، وإذا دخل الكوفة حدَّث بفضائل عثمان»[1]. وهو الذي أوصى بقوله: «واعلم أنه من طلب الخير صار غريبًا في زماننا، ولا تستوحش، واستقم على سبيل ربك، فإنك إن فعلت ذلك؛ كان مولاك الله تعالى وجبريل وصالحي المؤمنين»[2]. وقد جربت أحيانًا -إن أسعفتني طاقة وشجاعة- على تبيين ما أعتقده باطلًا، سواء تسرب للناس باسم السلفية، أو باسم إخوانية، أو علمانية، أو حكومة، أو طائفة، فإن أصاب طالب حق فهذا خير وإن أخطأ الهدف فقد لا يكون ابتعد عن الإشارة إلى انحراف، يبرره المتعالم، ويلتف حوله المتذاكي، وينكره المعاند الجهول، فإن كان قولي مخطئًا فقد وجدتم دليل الحق في قناعتكم بشاهد الانحراف!

أصبح الفكر في مجتمع المسلمين -المأخوذين بالتقليد والخوف والهروب من الزمان- سبة بعد أن كان فريضة، وأصبحت للتقليد -بعد أن كان في الشريعة مذمومًا- القداسة والاتباع. والتقليد لا يأتي بخير، وإن ظهر لبعضهم أنه وقاية من الاجتهاد الخاطئ، ولكنه منهج

1 الذهبي، شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان، **تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام**، تحقيق عمر عبد السلام تدمري، (بيروت: دار الكتاب العربي، 990)، ص 237.

2 الأصفهاني، أبو نعيم أحمد بن عبد الله، **حلية الأولياء وطبقات الأصفياء**، (القاهرة: مكتبة الخانجي، بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، 1996)، ص7.

خاطئ من أصله لا يقود لرشد، ولا لوعي. وبما أننا هنا نتحدث عن ضرورة فهم زماننا وأنفسنا والقضايا المحيطة بنا، فمن دور الفكر – بكل أنواعه– صناعة الملاءمة أو التوافق، وقد يبدو الفكر في لحظة ما صناعة للخلاف، وإذا سبرت هذا الخلاف وجدت أن هدفه الملاءمة لقضية أهم، فالفكر حالة عالية من التفسير والتوجيه لمصالح الإنسان في علاقته بكل جوانب الحياة، معنويها وماديها. فالإنسان ينشد العلاقة المفيدة المريحة لنفسه، المحققة لحاجاته كلها، وحيث يجد سعادته فتلك لحظة من شعوره باستكمال انسجامه أو ملاءمته مع ما حوله. ولهذا تراه يدأب في البحث عن هذه القضية، وأفكاره غايتها أن يجد هذه الروح، وهذا المجال السعيد، أي الملائم له.

ولأننا نقف تجاه هذا الحشد من المذاهب والأفكار، وهي ترفع شعارات جميلة، فإذا خبرناها تكشفت عن خداع مريع، فهذه فائدة أن نعرف، وإن لم نقدر على العمل، فقد يرفع أحدهم شعار العلمانية، وتخليص الدنيا من الدين، فتقول حسنًا هذا مراده، ولكن يصدمك الواقع فتجد أن العلمانية المرفوعة عمالة في الصميم، ونفاق وتعبد لدين آخر قد يكون خرافة، وتترك هذه الزاوية وتفتح بابًا على التسلف، ثم تخبر عمقه فإذا هو تزلف كريه، لحاكم منعم، أو للعامة المؤثرة.

وإذا كان التزلف عمليًّا فلماذا نعترض عليه؟ ولماذا ننكر التزلف المتسلف ما دام مفيدًا، فهو في عاجله منفعة للشيخ، وراحة عقل للتابع، وهدوء وركود تدعو له الرغبة في البساطة والسهولة، والتصالح مع النفس والعالم، وهكذا العمالة مفيدة، فأن تغدر بأمتك، وتتزلف بها لقوة عظمى،

يعني أن تحصل على سند أقوى من كل حزب في العالم الإسلامي، وأرجى من كل حكومة تابعة، وطريق للمنافع والشهرة، وللصحافة والتلفاز!!

قد لا تجد في مفاصل هذا البحث إلا ما يحرجك، ولهذا أردت أن أقول كفى بيعًا للسلف نقدًا، وكفى من بيع الغرر، فالخلفي يبيع نفسه عليَّ وعليك، وتدفع حاضرًا ويقبض حاضرًا يدًا بيد، وهاءً بهاء، وهو يوهمك أن ما تدفعه يصرف هناك في ديار الموتى، أو يعلو به حق في مكان ما، بينما هو يغرك، إذ يربح طاعتك، ومالك وولاءك يبيعه في السوق مقامًا، وسمعة وشهرة، وتقربًا للسلطة، كما تبادله هي أيضًا على بيع ما أعطيت فتكافئه دعوة لمكرمة، أو لحفلة أو لاستشارة، أو تنقده نجاح وساطة.

عن الاجتهاد والموقف من صاحبه يقول الشيخ بكر أبو زيد: «من جرم المخطئ في خطئه الصادر عن اجتهاد؛ فهو صاحب هوى يحمل التبعة مرتين: تبعة التجريم، وتبعة حرمان الناس من علمه»[1].

كنت قد بدأت هذا الكتاب بعبارة من صلب موضوع البحث؛ غير أني وجدت قولًا للشيخ الشجاع التونسي محمد الخضر حسين، فأعطيتها مكانًا مقدمًا قبل كلامي، لأنها تصلح في مواجهة من يرون في كلامي -أحيانًا- استفزازًا لمشاعرهم الرقيقة من أن تجرح رقتها ونعومتها بلفظ غريب عنها، أو فكرة لم تتداولها ألسنتهم، ولم ترن كثيرًا في آذانهم، ولم تلكها فتستسيغها أمزجتهم، فتصبح من مركبات غذائهم المعادة، يقول

---

1 ورد في تصنيف الناس، وذكره محمود محمد الخزندار في كتابه **فقه الائتلاف قواعد مع المخالفين بالإنصاف**، مراجعة وتعليق الشيخ علي خشان، (د. م، دار طيبة للنشر والتوزيع، د.ت).

رحمه الله: «وههنا نكتة. نستأذن حضرات القراء في إرسالها، وهي أن بعض الشعب يريد كل امرئ منهم ألا يصدع بكلمة حتى يتسلمها جميع من في العالم بيد القبول والاحترام، وإلا فلا يكلم بها إنسيًّا خشية أن يسترق الشيطان سمعها. علة ذلك أن قلوبهم مستضعفة، لا تتجلد بالمصابرة على سهام الانتقادات الراشقة، يود الكاتب أن يخرَّ من السماء فتخطَّفه الطير، أو تهوي به الريح في مكان سحيق، ولا يبدي رأيًا ترده النقاد على عقبه، لما يقدره من أن دحض رأيه ولو مرة: تسقط به جلالته من أعين الذين يتهيبونه، مع أنه كثيرًا ما يحكم على بعض الجهابذة بعدم الإصابة في عدة مسائل، ولا يهضم ذلك من جانب عظمتهم شيئًا»[1].

رغبة الناس في أن يتناسب العالم مع شهواتهم، وأن يخضع لأهوائهم، شهوة أصلها صحيح، إنها شهوة عميقة في النفس الإنسانية، ومفيدة جدًّا للإنسان، لما تيسر له من انسجام مع العالم، وتحقق من رغبات. وتحكي هذه الشهوة براعته العقلية، وحيله النفسية، على نفسه وعلى الناس، لتطويع ما حوله لهواه، ولإبقاء هذه المصالح الفردية الأنانية مقبولة له وأن تظهر لعامة من يحيط به وكأنها رغبة عامة، هي من هدي السماء ومن مصلحة الإنسان، ولكنه كثيرًا عندما يخشى كشف رغبته، أو كشف رغبات الناس، فإنه يتجنب الصراحة، ويكون ميالًا لكبت الحقيقة، فيغلفها، بأغلفة عديدة، لإغراء الآخرين وإقناعهم بها، أو سوقهم في درب شهواته المخفاة، ومراوغتهم بإقناعهم أن ما يحبونه هو ما يحبه الله، وما يجدر بالإنسان. لأن صراحته بالدوافع الحقيقية له أو لهم تؤلم ذواتهم،

1 محمد الخضر حسين، **حياة الأمة**، (بيروت: دار ابن حزم للنشر والتوزيع، 1414هـ/ 1993)، ص 41.

وتظاهرهم وتعززهم المعنوي المحتال، فلو قال أريد وهذا يصلح، أثار غيرتهم، حسدًا بسبب مبادرته وكسلهم، أو بسبب مصالح لهم تخالف رؤيته أو مصلحته، أو بسبب فهم للدين هم صادقون في التعبير عما فهموه، أو جال بخواطرهم.

تعريف السلفية

فعل سَلَفَ يعني مضى، والسَلفُ هم السابقون أو الماضون، ومنه الأسلاف أسلاف الشخص يعني أجداده.

قال زهير بن جناب الكلبي، وهو شاعر جاهلي:

ولقد رأيت النار للسلّاف توقد في طمية[1]

قال ابن فارس عند مادة سلف: «والسلّاف المتقدمون (في حرب أو سفر)»[2]. وقال في **القاموس المحيط**: «سلف جمع سلاف... والسلوف الناقة التي تكون في أوائل الإبل إذا وردت الماء، وما طال من السهام،

---

1 ابن سلام الجمحي، **طبقات فحول الشعراء**، تحقيق الشيخ محمود شاكر، (جدة: دار المدني، د. ت)، ج1، ص 37. والبيت من قصيدة عن الطعن في السن منها:

والموت خير للفتى وليهلكن وبه بقية
من أن يرى الشيخ البجال وقد يهادى بالعشية

والبجال هنا تعني المبجل، والطمية المكان المنخفض الذي يمكن إشعال النار فيه دون أن تنثرها الريح.

2 القزويني الرازي، أبو الحسن أحمد بن فارس بن زكريا، **مجمل اللغة**، تحقيق زهير عبد المحسن سلطان، (بيروت: مؤسسة الرسالة، 1406 هـ/ 1986).

والسريع من الخيل»[1]. قال الذهبي: «السلفي هو من كان على مذهب السلف»[2].

وفي **المعجم الوسيط**: «من يرجع في الأحكام الشرعية إلى الكتاب والسنة»[3].

ابتسار الماضي والحاضر

شهدت جنازة وبعد أن أوشك أن يتم العاملون في دفنها إنجاز مهمتهم رأيت أحدهم ممن يظهر عليه التنسك، يزاحم ليقترب من الذين يعملون في الدفن، فقلت لعله يريد أن يخفف عن أحد العاملين شيئًا من العمل، فرأيته وقد جلس ثم حثى ثلاث حثيات يسيرة، يحرك الطين قريبًا جدًّا من يده، ثم يذهب إلى قبر آخر يفعل كفعله هنا، وقد فهم أن المشاركة في دفن الميت تكفي عنها هذه الرمزية، وقد تم له أجر ذلك فابتسر العمل الكريم الرفيع في هذه التمثيلية أو الطقس البارد، الذي أثار استنكار الناس، فهو زاحمهم لا ليساعدهم، وإنما ليحقق أنانيته في تحقيق الأجر العظيم بلا عمل، ويحقق أجر العاملين بحركته هذه بلا جهد.

---

1 الفيروز آبادي، مجد الدين محمد بن يعقوب، **القاموس المحيط**، (بيروت: مؤسسة الرسالة، 1426هـ/ 2005)، مادة سلف.

2 الذهبي، شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان، **سير أعلام النبلاء**، ط3، ج1، (بيروت: مؤسسة الرسالة، 1405 هـ/ 1985)، ص 6.

3 إبراهيم أنيس وآخرون، **المعجم الوسيط**، ط2، (القاهرة: مجمع اللغة العربية، مكتبة الشروق الدولية، 2004)، ص 444.

ولك أن تتأمل هل مراد الشارع هذا الابتسار، كيف وقد أشعر بفعله المتدينين وغيرَهم أن غاية الفعل والمشاركة ذرات يحركها بجانب يده، ثم يكتب له كما توقع أجر كل تلك الجنائز!

ترى ما الذي اختزل الأعمال الكبيرة الحقيقية في حياتنا إلى طقوس شكلية عارضة تطالب بالأجر، بل قد تتوهم ضمانه عن طريق تنفيذ صورة مبتسرة من العمل. في نظر الذي مثلت لحاله أن العاملين الذين أنفقوا الساعات في الحفر والدفن نالوا أجرًا أقل منه، لأنه شارك في دفن خمس جنائز في نصف ساعة! بينما الذين عملوا ودفنوا الجنازة كان عملهم الطويل في جنازة واحدة فقط، فهم سيكونون في مخيلته أقل منه عملًا وأجرًا.

وسمع المتسلف عن الاحتساب على الحاكم وأمره ونهيه، فإذا الموقف عنده «إقامة حجة» على الحاكم، وإذا الحاكم يلتقط الدوافع والأفكار، ويفهمها بسهولة. فليس مراد الشيخ تغيير منكر، ولا أمر بمعروف، ولكن الإعذار، «ومعذرة إلى ربكم» مثل تلك الحُثيات تمامًا. فليس من مسؤوليته أن يقوم بمشروع إصلاح، ولا أن يساعد في تحقيقه، ولا أن يعاني من أجله، لا؛ فقط ليعذر، وليقال قد قال، أو ليشهد حفل الاستقبال ليقر له الحاكم بدور مقيم الحجة!!

والحاكم يدرك قصد هذا النوع من المشايخ، وهو الموقف الشكلي، فقد أصبح يدرك أن بعضهم يرون أنه مطلوب منهم أن يتظاهروا بالأمر بالمعروف وبالنصح، ومطلوب منه أن يبادلهم بالتظاهر بالاستجابة لما

يشتكون منه، ويظهر الاهتمام وربما بسط الأعذار، ولوم الزمان، ومكائد الشيطان، وربما تفاعل معهم في الحديث عن أثر الحساد، والتقليد للمارقين.

وقد أصبح دوره أقل من دور من يطلب صيدًا، عند أبي جعفر المنصور، فهو طالب دعاية، ليقال حضر، وتحدث، أو شهد مشهد الأعذار والإعذار. ولم يكن قائمًا مقام عمرو بن عبيد.

الفيلسوف اليهودي البريطاني الروسي إليسع برلين، أحد الذين درسوا المشكلة الشيوعية في روسيا، وظاهرة تعامل الروس مع الفكرة الشيوعية، وقد أنفق زمنًا من عمره وثقافته وكتاباته، وعمله وتجسسه للحكومة البريطانية أثناء الحرب العالمية الثانية، في دراسة الشيوعية، كتب مقالات عدت غاية في الذكاء عن الشيوعية والشيوعيين، وعن روسيا والمثقفين الروس، وكان من أفكاره قوله: «إن عند الروس قدرة عجيبة على ابتسار الفكرة وتنفيذها وفقًا لما ابتسروه»، يعني بذلك اختصارها وتبسيطها، ثم تنفيذ فهمهم لها، فتكون الكارثة.

فالفكرة الماركسية نتاجُ جدلٍ طويل في الغرب، ونتاج تحول مالي وعملي، ومعاناة في مجتمع مختلف، وكان يتوقع ماركس أن حله المقدم لمجتمع صناعي سوف يعالج المجتمع الصناعي، وسوف ينفذ العمال الصناعيون وصفته لنجاتهم، ولكن المظالم الروسية والفساد الحكومي وحال الروس البائس جعل التنفيذ يتم في غير مكانه، وفي غير بيئته وليحل مشكلات ليست مما بني له الحل، فتنظيم جيد، وقادة من ذوي البأس الشديد والالتزام، ومفكرون بسّطوا التركيب الفلسفي أمكنهم أن يقيموا الماركسية في مجتمع فلاحين، وليس في مجتمع عمال المصنع، وكان أول من

استغرب ذيوع فكرته في روسيا ماركس نفسه، ووجد صعوبة في تكييف وإعادة تكييف فكرته مع أتباع حركته ومثقفيها في روسيا قبل ثوارها!!

إن ابتسار فكرة ما قد يدمرها، أو يدمر بها أمة، وقد كان ذلك بطرفيه، فقد أهلكت الماركسية العالم، وأهلكت الكثير من جوانبها، والدور الناجح لها كان في المجتمعات التي حاربتها وكرهتها ولم تنفذها، أي في أوروبا الغربية، فقد ألقت الثورة بثقلها على الذين لم يقتنعوا بها، وخافوا منها أن تجد طريقًا لمجتمعاتهم، فانساق هؤلاء باتجاه حلول وسط للطبقات المقهورة، ونجحت هذه الحلول في تجنب تلك المآسي؛ فالعاطل عن العمل في أوروبا له راتب شهري يقيه العوز، ودوافع باتجاه أن يعمل، وله سكن أو مساعدة في السكن، مع علاج، وإجازات وتعويضات عما يحل به.

هذا إذا أغفلنا عوامل أخرى يذكرها بعضهم في قائمة أسباب النجاح الأوربي وبخاصة الشمالي، ومنها التدين، وأنه سبب للشعور بحقوق الفقراء في المناطق التي خضعت لمفاهيم التقوى الكالفينية في الدول الإسكندنافية كـ«السويد، والنرويج» مثلًا.

الابتسار السلفي واضح

بما أن التسلف الكلي «محاولة فاشلة لإعادة صورة الماضي كما هي في حاضر مختلف»، وقد يحدث أيضًا أن تجد تسلفًا بوجه آخر، فبإمكان أحدهم أن يطيل ويهمل لحيته، ويشعث شعره، ويهمل رزقه، ويجمع مكتبة ضخمة، ويكتب عن فقر العمال، وعن الاقتصاد السياسي، ويعلن

الكفر بالله والأنبياء، ويقيم شبكة من الدعاة لفكرته، ويبحث عن صديق يموله، ثم يقول إنه مقتد بماركس، وإنه سيعيد أمجاد الماركسية.

أو آخر يطارد الأرامل والمغرورات، ويحاول أن يكتب الأقاصيص ويسب الدين وأهله، وينشر الفجور، ويسخر وينشر الفكاهات عن مخالفيه، ويزعم أنه يحيي عصر فولتير وسلوكه! ما أقبح التقليد وأثقله، وما ألصقه بالإنسان![1].

وآخر من المسلمين يهجر السيارة والطيارة والكهرباء، ويهجر المطبعة ونتاجها والمدارس وتعليمها، والسياسة وأهلها وآثارها، ويخيل إليه أنه قد أعاد أحمد بن حنبل جذعًا. أو يثير النظر في قضية قديمة، ويلزم المعاصرين فيها برأي أحد السلف، ويغلق الفهم، ويقفز عبر الزمان ليتخيل أنه قد أعاد أبا حنيفة أو الشافعي!!

التسلف بوصفه خيالًا

التسلف في عقول أصحابه صورٌ خيالية، غير عملية ولا واقعية، وعبارة عن قطع من الماضي بحسب ما تجود به الذاكرة، وما تمسك به من أخبار الماضي، فقد تتخيله في صورة هارون الرشيد، أو في صورة من هو خير منه من الحكام، ومن المدن ومن الأشخاص، ولكنها صور لا يمكن أن تعود، وفوق ذلك وقبله وبعده هي خارج الزمان، وخارج المكان، لأن الإنسان ينسى - وهو والهٌ بزمن أو صورة- أن الزمان والمكان لا

1 أرجو أن تجد شيئًا من التفصيل في بحث المؤلف عن القدوة.

يعودان، ولا تتكرر المواقف، ولا الظروف، ولو كان ذلك ممكنًا لما كانت هناك حاجة لأنبياء مختلفين، ولا حاجة لتجديد الدين، ولما كانت هناك حاجة لمسائل المرونة التشريعية، ولا لكثير من القواعد التشريعية.

يمكن أن تملأ ذهنك بصور متخيلة لزمن مضى، ثم تصب عليها فكرة استعادة أمجادها، فتملأ عليك صور الماضي آفاق المستقبل، وتلغي عليك التعامل العملي مع الحاضر، فيتنقل عقلك بين صورتين زمانيتين بعيدتين، يقرب إحداهما من الأخرى الحب والرغبة، لا الفكرة الواعية، ولا الحالة العملية.

عن الفهم الصعب أو «المستحيل» للتاريخ!!

التاريخ ذاكرة جماعة من الناس، وكتابة التاريخ أعمال فردية، وهناك تبادل فكري وعملي بين الذاكرة الجماعية، والصياغات الفردية التي يؤسسها المؤرخون، ويستغلها أصحاب الدوافع، نحو مستقبل ترغبه فئة أو أفراد، وقد جمعت مرة نبذة عن التنبؤ في التاريخ[1]، لأنني كنت أقرأ ويسرني أن أجد أولئك الأذكياء الذين تحققت لهم نبوءات عن المستقبل، وكانوا قد بنوا آراءهم على بعض العلوم، وعلى بعض المؤشرات، وبعد جمع بعض تلك الأعمال تبين لي شيء من جيوش الرغبات، والطموحات التي تتحكم في عقل من يراقب التاريخ، وأنه يملي شهوته على التاريخ، ولا يعتمد مؤشراته إلا نادرًا.

1 التنبؤ في التاريخ، فصل من كتاب **خطر التاريخ**، للكاتب.

الذين حاولوا فهم التاريخ، وبالتالي إمكان قسره باتجاه محدد كانوا واهمين، وكان سعيهم في ضلال، هكذا وصل الفلاسفة في العصور الحديثة، هل كانت النتائج التي وصلوا إليها صحيحة؟ أتمنى ذلك، لأن في عدم فهم التاريخ حرية، وفي جهل مستقبل التاريخ كرامة للإنسان. وقبل مغادرة هذه الفقرة من المهم أن نفرق بين أن نفهم التاريخ «أي تفهمه أمة أو جيل، أو دولة» وبين أن يبقى فوق سيطرة الإنسان -أيَّ إنسان- فعلى المعنى الأولى كان الطموح الشيوعي، ثم الزعم العملي التنفيذي وفق الفكرة، وكانت النازية أيضًا، فلسفة زعمت أنها تعرف أين الإنسان في علوه، وأين هو في رداءته، وكان ذبح الأجناس الأخرى بناءً على نظرية فلسفية تاريخية وعلمية زعمها النازيون، لا تختلف كثيرًا عما يكتبه اليوم وقبل اليوم الصهاينة.

فهم عصابة من الناس للتاريخ، وهمًا أو حقيقة يفتح باب الشرِّ على البشرية، لأنهم سيجعلون من أنفسهم الإنسان في ذرى مجده، وغيرهم الحيوان المرتكس في حيوانيته، وقد يهبونه مرحلة بينهم وبين القرود؛ وبهذا يستبيحون إبادة «الإنسان» الذي بقي في محطات قديمة لهم قد جاوزوها هم.

هذه النزعة التي نحذر منها ليست بعيدة عن عقول كثير من المثقفين والعامة في بعض شعوب وأجناس العالم، وهي وهمٌ يخالج القويّ المنتصر دائمًا. فما علينا إلا أن نوقف هذا الوهم، ونضع بدلًا منه فكرة الدأب الجادّ لخير النفس والناس، وأن هذا السعي هو ما ينتج الفلاح المالي، والصناعي، والاجتماعي، العقلي، والخلقي، ونطالب به، منتصرًا متظافرًا،

ونضعه قصة فهم التاريخ وثمرتها. وبهذا نجعل من قصة التاريخ سعيًا إلى غاية أعلى، وليست هبة عنصرية لشعب أو لجغرافيا.

ولا يملك التاريخ أيضًا أي تفسير ديني، لأن الدين الصحيح ليس ملكًا لإنسان في مكان ما، وتحقيق تفسيره مفتوح دائمًا، ولا يمسك به في زمان، بل أوضح ما في الإسلام المطالبة بالكمال، والنهي عن الغرور، وإكمال الدين للمسلمين إكمال شرائعه وآدابه، والتزام ما أمكن جيل متميز من تنفيذه، ولم تستكمل كل آفاقه ولا تطبيقاته. فمنه جوانب أمكن تطوير تطبيقها، وهناك آفاق مستقبل قد تحقق للناس الكثير من طموحاتهم التي يسعون لها، ولم يسمح بها ظرف سابق.

وهنا يمكن أن يسطر حَمَلَةُ الخير للعالم آفاق عالم لم يروه، وأن يبشروا بما لم يستطلعوا، لا بما تم في السابق، فالتسلف الليبرالي والإسلامي اختباء من العالم، وانسحاب عن المشاركة فيه، اختباء المتسلف دينيًّا في عصر ما هو هجران لهذا الزمان الذي يعيشه، وللزمان القادم الذي يستقبله، وهذا يعني إلباس العصمة على الماضي، الذي لم يكن مقدسًا ولا معصومًا، ونعرف الكثير من مشكلاته، والليبرالي يختفي عن أن يواجه بنفسه فكر وثقافة زمنه، فيختبئ وراء موضة فكرية غربية سالفة، أو ملمح انحراف حدث في تاريخنا يسمح له بالالتحاق بالغرب في مكان أو زمان ما، مثال ذلك التكبير من دور المجموعات المنحرفة في التاريخ الإسلامي، كالقرامطة، وغيرهم كمن كتب عنهم حسين مروة، وكالفئات الهامشيّة

في تاريخ المسلمين، من الذين هوّل منهم ومن دورهم آخرون من مثل الكاتب أدونيس[1].

تعاملنا مع التاريخ، تاريخ المسلمين أو غيرهم يجب أن نعي أن التشكيك التام فيه خطأ كتمام اليقين به، وأن التهوين والاحتقار له خطأ مثل تقديسه، وأنه ليس معصومًا، وليس منتهيًا من حيث البحث في صحة أحداثه، وتركيبها فضلًا عن الزعم في تمام تفسيره. بل هو من المواد التي يمكنها أن تساعدنا في الحصول على حياة أسعد وأرقى، كما يمكن أن نسيء استخدامه، ونتضرر به تقديسًا أو تهوينًا. ولنتأكد أن كتابته المنفتحة الدائمة في كل العصور ضرورة، ولا يكتب التاريخ الواعي إلا عقل مهتم بالمستقبل، يتمنى أن يسير به نحو غاية ما.

وعلاقته بالعقيدة أو الفلسفة وبالأخلاق علاقة مصيرية، فيوم تصنع المفاهيم تكون متأثرة في أغلب صراعاتها بالزمان وأحداثه وأحزابه ورجاله وأفكاره وعلومه.

وعلاقة التاريخ بالرجال الأفراد حاسمة، ففرق أن يتولى المشاركة في توجيه مصير أمة رجل طمّاح مندفع يعي ما يسير إليه، أو أن يتحكم بقيادتها غافل أو جاهل، أو شهواني قريب الطموح أو بدونه، فرق أن يقودها حالم، أو واهم، أو يقودها من ملَّ من الأمجاد قبل تحصيلها، أو من لا أفق لديه لغد مختلف عن يومه.

---

1 كانت لي معرفة بأحد المستشرقين الذين كتبوا في موضوع الفرق الهامشية في التاريخ الإسلامي، وأحببت أن أعرف سبب اهتمامه بهم؛ فقال: نريد أن نعيد لهم اعتبارهم، وأن نضعهم في نسق سياق التاريخ الرئيس بدلًا من تهميشهم الذي حدث!!

فرق بين أمة يقودها فرد عابد لنزواته يختصر أمة في شهوة عابرة، وبين فريق رشيد متنوع واسع الأفق والخيال، متجانس أو ملتزم بخدمة المصالح العامة، لديه من الدوافع والخلق ما يجعله أقل أنانية وحريصًا على المصلحة الجامعة، ولا يذبح على مصلحة الجماعة مصلحته، بل يوائم ويراقب انحرافه والآخرون رقباء أيضًا.

نحن نشتاق لفهم التاريخ، ومن الذي لا يفرح بامتلاك أهم قضية مؤرقة للإنسان منذ عرفناه، نود أن نأخذ بأيدينا وأيدي الأجيال القادمة، ثم نقول لهم هذا أو ذاك سيحدث، غير أن هذه مجرد شهوة، نعم هناك نجاح ثبت وجوده على الزمن القصير حيث ترى المؤشرات القريبة[1]، ولكن على المدى الطويل ذاك طريق صعب. عندما كان الاقتصادي الكبير جون منيارد كينز (1883-1946)[2] يعطي الحلول للخروج من الانهيار الاقتصادي الذي عاث بالحياة، والمجتمع الأميركي، وغيره من أجزاء العالم في بداية ثلاثينيات القرن العشرين -1929 وما بعدها- وكانت الحلول التي قدمها باهرةً، وعملية، وشهد الناس أثرها؛ فقال له أحدهم وهو يناقش بعض القضايا المستقبلية البعيدة: وماذا عن الحلول على المدى البعيد؟ فقال: «على المدى البعيد كلنا نموت»!!

---

1 من نماذج ذلك ما كتبتُ في كتاب **ملامح المستقبل**، ط3، (بيروت: الشبكة العربية للأبحاث والنشر، 2010)، وما يجده أي مراقب يحصل بعض أسس الدراسات التوقعية المستقبلية القريبة.

2 ولد في العام الذي مات فيه كارل ماركس، وقد كان من أهم الاقتصاديين في القرن العشرين، وكانت له مشاريع إنقاذ، وتنبؤات عجيبة، انظر: روبرت هايلبرونر، كتاب **فلاسفة عالميون، حياة وزمن وأفكار المفكرين الاقتصاديين العظام**، الفصل التاسع.

ومما يلفت النظر أن طموحات الإنسان وأسئلته بنات حاجته، وحاجاته لا تلح عليه إلا بإمكان الحصول عليها، أو على جزء كبير منها، فقد كان يطمح لسرعة الانتقال وللطيران ولصحة جيدة، أو علاج يخفف عنه آلامه، وتوفر له كثير من ذلك أو قليل، فهل كل ما يلح عليه يمكنه تحقيقه؟

وقف علماء الكلام من المسلمين عند سؤال موسى لربه «أرني أنظر إليك»، وقالوا كلمة طريفة: «لم يكن ليسأل ربه مستحيلًا عليه» والسؤال دليل الإمكان!

يأتي سؤال الخلود، وسؤال المعاد، وأسئلة أخرى كبيرة وكثيرة، ليس أقلها سؤال التاريخ وطموح الإنسان في امتلاكه. وإذا كانت هذه الأسئلة بعيدة المنال، غائبة في تلافيف الزمان، أو خاضعة لإمكان تحقق شيئًا منها مستقبلًا «بعيدًا» ربما فليس لنا إلا أن نقول ما يليق بإمكاننا وإمكان عصرنا، ومن عاش في عصر آخر وتيسرت له أدوات أُخر فلزمانه أفكاره الخاصة به.

كانت فكرة امتلاك التاريخ لائقة بالغرور العلمي في القرن التاسع عشر -وكان في أوج غروره إذ ذاك- قبل أن يتواضع ويتنازل عن كثير من الأوهام، وكلما قلَّت الأوهام تواضع الإنسان، وأمكنه التأكد من بعض خطواته للأمام، ويبقى للأوهام سحرها وجاذبيتها، ودفعها الخيالي للبشر، والخيال ينقذ الإنسان من الحقيقة في جوانب عديدة من شؤون حياته الخاصة والعامة.

عند تأمل «نظرية تايلر»، أو نظرية «ديمنج» في الإدارة، ومقارنة النظريتين التي يفصل بينهما أكثر من نصف قرن، يتبين لنا أن نظرية تايلر

العلمية التي تقول: إن الأنظمة العلمية الإدارية صحيحة دائمًا، وأن الخلل إن وقع فهو من الإنسان، وقد سارت شركات السيارات والمصانع الكبرى على رأي تايلر، حتى إذا انتهت الحرب العالمية الثانية، وخفت الضغوطات على الإنسان، ولاح التنافس والإبداع، عاد الوجه البشري للظهور، وعادت حاجات الإنسان، وأخلاقه، ونزعاته، وحاجاته؛ تؤثر وتجر النظريات العلمية الإدارية للوراء، تبحث في المصنع عن تقدير الإنسان، وتبحث عن الخطأ في النظم. وكانت نظريات تايلر التي قالت ليس النظام العلمي معصومًا دائمًا، لا؛ بل هو بحاجة لتبين عيوبه، وكشفها المستمر. وذهب ديمنج للقول: «علينا أن ننهي البحث المهووس عن نظام بلا خطأ، لأنه ليس موجودًا، وعلينا أن نلاحظ الخلل، ونقلل منه، أو نتجنبه، وبالعمل المستمر على التحسين سوف يولد لنا دائمًا أخطاء وسوف نعمل على التقليل من آثارها فقط». وهذه النظرية أكثر انسجامًا مع الإنسان، وأكثر نجاحًا عندما طبقت في شركات السيارات مثل شركة تويوتا في اليابان، وشركة فورد لصناعة السيارات في أميركا.

هل تصلح نظرية أي منهما للبقاء؟ الإنسان مسؤول أمام مصلحته، ففي زمن تايلر نجحت نظريته، في زمن عبادة العلم، وتوهم إنقاذه وصناعته لكل شيء وتخيل إعجازه وقدرته على تغيير الإنسان، وفي زمن ديمنج حين عاد الإنسان، أو بعضه للمصانع، وأعاد لمسة الإنسان، ومزاجه، وتطلعاته؛ نجحت نظريته. علمًا بأن وجود الآلات كان قد زاد في زمنه عن زمن تايلر. وهكذا كان نجاح الكثير من آراء معاصر الأخير منهما: «دراكر» في زماننا، ولكن رؤية الأمور على أن المستقبل لأحدهما مجرد

وهم آخر[1]. لقد كانت نظرية ديمنج منقذًا من السلفية العلمية «الإدارية» التي كادت تودي بمستقبل شركات صناعية كبرى.

ضعف الروح وانحراف مساراتها

الروح تقبل على التدين بحماسة، وتسعد في ظلال الروح والصفاء، وهكذا تتوله عندما تجعل مثلًا عاليًا أمامها، أو حقبة راقية تخلصها من دنيويتها، ومن ضيق الحياة التي تعيشها، ولكن خطر التسلف من التقليد، ومن مشكلات الخصومات الصغيرة المبثوثة في دروب الإيمان، ومن الصغار الذين يزحمون الدين بالمناكفات الصغيرة، والجدل الضعيف، وكل هذا يأخذ الروح بعيدًا عن تحقيق سعادتها، ويشقي المجتمع بصرف اهتماماته لما لا يليق به.

إن موردك من الطاقة محدود، ووقتك محدود، فإن استولى التوتر على قسم كبير من طاقته أرهقك وصرف قدرتك لغير دروبها، وقد قيل إن التوتر يمكنه أن يسلب الإنسان 33٪ من طاقته يوميًّا، بل وبعض الأمراض العضوية منشؤها من هذه الأزمات النفسية، وضياع الطريق.

هاجس التقليد الشديد للغرب أو الشرق، للأجداد، أو لثقافة الأحفاد يفيد متعة أحيانًا، ولكنه يُكلف الجسم والعقل وثقافة الفرد ما لا تستطيع توفيره، فتُنجب المحاولات الفاشلة الكثيرة؛ ضعفًا في الثقة، واحتقارًا، أو

1 دراكر أكثر الثلاثة كتابة وتنظيرًا، وكان يلح على صواب توقعاته، وقد أصاب في بعضها، وخدم أبحاثه باتساع اطلاعه، ورصد، وكتابة كل ملاحظاته. من كتبه التي اهتم أن يسجل فيها بعض توقعاته التي تحقق بعضها كتاب **ما بعد الرأسمالية**.

هجاءً للذات، ومن العلاج لهذه الطموحات تقدير الإمكانات الحقيقية للفرد أو للجيل، وزرع الثقة بالنفس، والسماحة معها حين لا تطول المعالي الصعبة، مع محاولة جادة في التعلم، والتطلع لما هو أحسن، واستحضار شيء من اعتبار حكمة الوجود، التي لا تستعجل ولا تقفز المسافات كما نحب أن يحدث.

الشك في طريقة الأجداد تنقذ من عيوبهم، أما تقديسهم فإنه يحملنا عيوبهم وعيوبنا، ويغلق علينا الأمل في الإصلاح. بعضهم يقدس الماضي بغرض اغتيال الحاضر، وإلغاء عقول المعاصرين، وتحقيرهم وهجائهم، وإنهاء حججهم وتأثيرهم، فلا ينقذه من زمانه، ولا من رجال زمانه -أذكيائهم وأغبيائهم- إلا جند السلف السحيق، وملاحظة أخرى لعقل المتسلف الذي يجعل السلف فوق الجميع ليضع من معاصريه، فالحاضر بلا رجال، والمستقبل بلا آمال.

السلف الذين يستعيدهم بقدر الطاقة على قدره وعلى قدرته، فليسوا نابهين عباقرة منتجين مبدعين، لا بل صور عن نص يعيد هو استعماله بقدر ضعفه، أو بقدر همته. فليس للسلف همة أعلى منه، ولا قيمة ولا قدرة تتجاوز قدرته.

التزلف للعوام والتزلف للسلطات

يحسُّ أحدنا بضغط الناس على عقله ووعيه، ومن راقب نفسه بصدق وإخلاص شاهد هذه العملية المعقدة من المجاملات، والصياغة المستمرة المتحولة لأساليبه، ومواقفه من كل قضية، وكيف يقول الكلمة في مجلس،

أو محاضرة، أو مقالة، ثم يعيد صياغتها بحسب المتلقين، وقد يكون التعديل في الصياغة والأسلوب أول الأمر. ولنقف فقط عند مسألة الصياغة، مع بقاء الفكرة الأصلية، وهذا شعور جيد أن يعي الإنسان، ويتمرن على أن يوصل فكرته لغايتها، ولكنه في الغالب لا يقصر التعديل على الأسلوب، بل في الحقيقة إن التغيير في الأسلوب والألفاظ يبلغ محتوى الأقوال، ويصل إلى المعاني، ويعيد ترتيبها وتركيبها، باتجاه التشدد فيها أو التساهل، المرونة أو القبول، أو المنع بحسب مستقبلي الخطاب، أو المطالبين به.

ونحن نحرص أن نسر من نحب وأن نودّه بما يطربه، وأن نجرح من يخالفنا، أو نهوِّن من قدره، أو قدر فكرته، هكذا الناس دائمًا، وفي سبيل أن نبلغ لما يحبه الناس فإننا دائمًا ندفع ثمن إرضائهم غاليًا، من أفكارنا، ومن مواقفنا، وعلى حساب القناعة، ونحرص ألا نستفزهم بما يزعجهم، ولكننا نصل بعد فترة إلى خلاف فكرتنا، فنبيعها في سوق كسب القبول من العامة، أو الرضا من الخاصة، أو الشهرة عمومًا، وقد يصل الأمر إلى الحصول على المال الواسع مقابل تزلف للعامة بما يسرهم، فبأيديهم الدعاية والمال، والرغبة في القبول عند الناس شهوة لدى كل متحدث، أو معبر عن فكرة أو رأي.

وكنت قرأت بحثًا بخصوص هذه المسألة عند الشيعة كتبه مرتضى مطهري، بيَّن فيه كيف تتغلب شهوة المتحدث الشيعي في كسب عواطف الناس، وبكائهم، وتفاعلهم على الحقيقة، والمعلومات الصحيحة فيسوق لهم من الأساطير، والمبالغات المبكيات، مما ليس له أصل صحيح بحسبهم،

فتطغى شهوة التأثير في الناس على أمانة المعلومة، مما يوقد العواطف ويسيل الدموع ويهيج الجموع، ولكن في الحقيقة كل تلك خرافات، وهياج للعواطف غير متزنة، وصناعة موقف مبني على الكذب وعلى أساطير لا سند لها. ومطهري لا يسير الدرب كله، فهو إلى جانب أصالته الفكرية كان يخشى الجموع، ويحب إبقاء خيط السياسة. ولكن المتحدث في جمع من الناس، والكاتب يعرف كثيرًا من مداخل النفوس، ويعرف طريقه هو إلى أين، فقد يعرف أنه يريد الجماهير العاشقة للسلوان، أو لبلوغ شهوة روحية من حزن، أو بطولة، أو فرح، أو إضحاك.

فكثيرًا ما نغفل عن دور المستمع في كتابة القصة وفي النص، وفي النصيحة والموعظة، فالشيخ يقول أحيانًا للجمهور ما يقوله له الجمهور، وما يتمناه الجمهور، وينفذ غايات وشهوات الناس، ويستطيع تأصيلها والبحث لها عن مشروعية، بدليل يقويه، أو قاعدة يسكب تحتها شهواتهم في زمن ما. وعزَّ بين الناس من يراعي الأمانة، ويحفظ العقل، ويوقر النص من العبث. فضلًا عن أن تجد من يتبصر في النصوص التي يرويها ويسوقها. وتبقى لهذه الأساطير والخرافات متعتها الروحية، ولها منافعها الجماهيرية والحزبية والمالية.

لك أن تكون أحد جمهور ذلك الشاعر في فيافي الصحراء، أو من جماهير قصاصٍ في بغداد، أو من مستمعي حكواتي في دمشق، أو من جمهور عزاء في قم، أو لطمية في ضاحية بيروت، أو سلفي في الرياض، أو صوفي في تركيا أو نيجيريا، فإنك ستستمع لما تحب ذائقتك سماعه، وإن لم يرضخ الشيخ للجمهور خسر الناس، وعنده يكون خسرانه بيّنًا.

قال المعري: «الحق يخفت بيننا، ويقام للبهتان منبر». ويقول بريخت: «من يروي الأكاذيب يحمل على الأعناق، ومن يقول الحقيقة يبحث عمن يحرسه فلا يجد أحدًا». وهنا تذكر حال الإمام الطبري يحاصره العامة في بغداد ويرجمون بيته، لأنه نمى لهم أنه يخالف أحمد!!

عن هذه الشهوة الجماهيرية كتب هنري ثورو نصًّا ممتعًا في أحد مقالاته، عن الذين كانوا يحضرون محاضرته، إذ يرونه مصيبًا متفوقًا، ومنسجمًا مع الحق بمقدار قوله ما يحبون سماعه، وبمقدار ما يؤكد أن قناعاتهم صحيحة، وأن منهجيتهم هي الحق!

ومثل هذا التزلف الشيعي لدى الجماهير الشيعية بسياق خرافات القتل، والإبادة الجماعية لأهل البيت، تجد عند السنة مزاجًا لدى بعض المشايخ في صناعة أساطير ضد الشيعة، تخرجهم من إنسانيتهم، وتغالي في التكفير والتلفيق، وتختار أسوأ القوم مثالًا للفكر المخالف، ويبحثون عن أسوأ القوم لينصبوه ممثلًا للفكر الشيعي، كما يحلو للمهيجة من الشيعة أن يجعلوا من بعض متزمتي السلفية مثالًا للسنة.

والجانب الفكري والقناعة في هذه الأمور من السهل علاجها، ولكني أعلم أن داء التزلف للعوام كما يفتك بالمتشيعة يفتك أيضًا بالمتسلفة، فترى أحدهم يكسب ثروة طائلة من نتاج الترويع من المتشيعة، ويكسب سمعة، وهالة بالدفاع عن السنة، وبعضهم في الحقيقة يبني مجدًا على قبر الحق الذي يدأب على دفنه في قلبه وعقله.

مثل هذا التزلف هناك تزلف للعامة بالوقوف معهم ضد حكامهم، وبعض من يمارس ذلك دوافعه تجارية فهو يتاجر بالمعارضة، ويتلقى رزقه

من مساعدة، أو التظاهر بمساعدة المعارضين للحاكم، فلا يعارض أسوأ الحكام في بلاده، ولكن تجده مرتزقًا من معارضة حكام بعيدين، لأنه يتزلف لعامة سكان بلد آخر أو مؤسساته ويقبض ثمن الترويج والتزلف لعامة المضطهدين. وقد يبالغ وينسج أساطير ويقيم مؤسسات شكلية غايتها الارتزاق من العامة بدغدغة عواطفهم، وأنه إنما أراد نصرة عقيدة أهل السنة والجماعة! والحقيقة أن الدراهم والدنانير هي: «أهل السنة والجماعة» وهي ما يتزلف للعوام من أجله، خاصة إذا كان هؤلاء العوام من ذوي المال والنفوذ؛ فليس التزلف للحكام فقط، بل منه هذا النوع السيئ المتملق لعواطف العامة، ويتظاهر بأنه مع العامة ضد السلطان الباغي.

وهذا النوع من التزلف أخطر وأسوأ تأثيرًا، لأنه يلبس لباس الاحتجاج على الباطل، ولأن الأنظار تتجه دائمًا للتزلف المكشوف للسلطان، فتمقته وتتحدث عنه، وترى منه مشاهد قبيحة.

ومثل هذا التزلف إبقاء الناس في هياج دائم، وفي تذمر غير واعٍ بما يتذمرون من أجله، والمبالغة في ثقافة السخط والنقد، فإننا وإن كنا في حاجة لثقافة النقد، وثقافة التصحيح، فإن هذه الثقافة ليس لها أن تتحول إلى أزمة اجتماعية دائمة، فلتكن مطالباتٍ وإصرارًا على الإصلاح، وتخفيفًا من وتيرة السخط المستمرة؛ لأن العقل الغاضب متوتر، ومسبب للانحراف في معالجته، ولو ورد عليه حق شكَّ فيه.

ونمط آخر من التزلف مقرف، وهو التزلف للناس بشهواتهم، فترى أحدهم يدغدغ شهوات الناس بأن عليهم أن ينساقوا وراءها، ويمجد الشهوات ويدعو لها إن كان فيها رضىً للغرب ومجاراة له في أهدافه في

بلاد المسلمين، فتراه ساخطًا على الأدب وعلى المروءة وعلى الستر، ساعيًا في البذاءة والفسق مزينًا لها بكل طريق، وتملق بعض هؤلاء المثقفين للغرب لا يمنع أحدهم من أن يغتاظ لو رأى أهله يفعلون ما يخل بالشرف والأدب، ولكنه يرضاه للأسر الأخرى تزلفًا لمن يعمل لتدمير واستتباع مجتمعه بالعمل على ضياع المجتمع بالشهوات والتبعية لعداته.

انتقد بعض الغربيين على حكومة المحافظين الجدد ترويج التفسخ والانحطاط في المجتمع العربي، في الوقت الذي يمارسون هم أنفسهم حربًا دينية على التفسخ والفسق في بلادهم التي يحبونها، ويصدرون لنا الفجور قسرًا، ويعينون من يقوم به في مجتمعاتنا! إنهم يصنفون ديننا وقيمنا معادية؛ فهدمها رسالة للمتطرفين من النصارى واليهود، وتدميرنا جزءٌ من حربهم الدينية وغير الدينية، وعندما يتزلف مثقف لهؤلاء بدينه وخلقه تكون الكارثة التي يدعو لها ويمارسها ضربًا من حروب المنافقين للمجتمع المسلم، فكيف له أن يقبل بها واعيًا.

فالتزلف للغرب بالمسايرة في خططه التدميرية التي أصبح أكثرها معلنًا، أو التنفيذ لمراداته سبب في زرع التبعية والوهن، وقتل لعناصر الحرية والاستقلال، وللأسف فهؤلاء يقتطعون من الحرية قطعة الشهوات، ويمتدحونها ولا يسمحون بالعمل للحرية بمعناها الغربي ولا الإسلامي أن تعيش، فتصبح حريةً خداجًا مشوهةً؛ يبرر حالها كراهيتها عند المحافظين المسلمين.

التزلف عند السلف

كتب علماء المسلمين ثروة مفيدة لمن يراقب ويفيد عن تزلف بعض العلماء للسلاطين، كما كتبوا عن تزلف القصاصين للعامة، وأوردوا شواهد كثيرة في مجال الضعف الذي يعتري العالم في ذلك الزمان، كما يعتري الشيخ في زماننا، فنجد المحدثين يتخذون مثالًا على الوضع في الحديث قصة المحدث الذي زاد في حديث «لا سبق إلا في رمح أو حافر أو نصل»[1]. فزاد المحدث تقربًا للأمير: «أو جناح» لأنه كان يرى الأمير يسابق بين الحمام، أو طير عنده، وقد كشف الأمير كذب الواعظ ولم ينكر عليه، بل أجازه.

ومن قبيل التزلف ما كتبه الماوردي في موضوع ولاية العهد مما لم يقره عليه أحد. ثم جاءت كثير من المواقف في الأمور السياسية للمجتمع من هذا الباب، تبحث بشراسة عن تأصيل، وسوف تجد -للأسف- لكل شهوة مؤصلًا.

أثر التزلف للجماهير في المسيحية

كما شهدنا أثر الأحبار والرهبان على النصرانية في نصوص القرآن، وكما شهد التاريخ، فإن العملية مستمرة في اليهودية والنصرانية، والتحريفات

1 عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لا سَبَقَ إلا في خُفٍّ أو في حَافِرٍ أو نَصْلٍ". رواه أبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه وأحمد.

والتغييرات التي أشار لها القرآن، تزيد وتتكاثر، وفي زماننا نماذج عديدة. ليس آخرها ضغط اليهود في أميركا، وإسرائيل لتغير الكنيسة الكاثوليكية من مواقفها في تجريم اليهود بدم المسيح، ولا قبول الشاذين في الكنائس، ولا وضع المرأة في رعاية الكنيسة، فإن من أسباب تغيير الدين شهوات العامة، وضغط السياسيين على القساوسة، فالمسيحية – قديمًا وحديثًا– تعدُّ مخزنًا هائلًا لمن أحب أن يرى أثر شهوة التقرب للجماهير في تغيير الدين؛ ونماذج ذلك كثيرة، منها: إلغاء إلزامية الختان للرجال لجلب المزيد من الناس للدخول في المسيحية من سكان أوروبا، وترقية عيسى المسيح إلى درجة الألوهية، ولم يكن ولم يزعم ذلك؛ والنصوص في العهد الجديد بحسب الدراسة التاريخية للنصارى أنفسهم لا توحي بهذا. ولأنه كما نقل برنتون: عمَّا وصل له الباحثون وأنهم يتفقون اتفاقًا تامًّا على أنه «ليست لدينا رواية معاصرة مباشرة عن أي شيء ممّا قال المسيح أو فعل»[1].

ومن الأمثلة؛ إباحة لحم الخنزير –وهو محرم في المسيحية– لاستدخال الذين يأكلونه في الدين الجديد، وإلغاء شعائر الركوع والسجود من المسيحية، حتى لا يقوم أحد من كبار الناس بحركة تؤذي ملابسه، أو تؤثر على مكانته الجماهيرية (بقيت في سوريا إلى الآن كنيسة بها بقايا شعائر الركوع)، كما أن المناصب الكنسية، والبابوية، بدعة حاربها المسيحيون المتدينون على مدار القرون، وليس أشد من حاربها ولا أولهم «مارتن لوثر» المصلح البروتستانتي.

---

1 كرين برنتون، **أفكار ورجال**، ترجمة محمود محمود، (القاهرة: مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر، 1965)، ص 175. وعن الكتاب نفسه نقلت بعض المواقف عن المسيحية التي أفرد لها المؤلف فصلًا من كتابه في نحو 50 صفحة.

يتضح أن الأسس الدينية التي بنيت عليها العلاقة بين الله والناس، وبين عيسى وأتباعه، وبين الناس والحكم، كثير منها تطور خارج النصوص المسيحية المكتوبة متأخرة، وفي ظروف مختلفة وبعيدة، فضلًا عن مرحلة التأسيس، فضلًا عن زمن عيسى نفسه، بدأت إطراءً ومبالغات، ومجاملات وانتهت دينًا ووثنية بابوية، يملك البابا فيه مجالًا كبيرًا من التصرف والتعديل، ويعتبر تعديله مقدسًا لا تغيير له.

كان من تعديلات بولس الصريحة: «إن الإغريق، والمصريين، والرومان؛ الذين يقبلون المسيحية في حل من الختان، وفي حل من الامتناع عن لحم الخنزير، وفي حل من التقيد بحرفية القانون»، ثم يبرر قائلًا: «لأن الحرفية تقتل، والروح تهب الحياة».

التزلف السلفي والتزلف الليبرالي

التزلف نزعة واحدة، أسبابها متقاربة، وممارساتها قد تختلف شكلًا، ولكن فحواها واحدة، فهي؛ وفاء، وطاعة، ومحاولة تقليد؛ لفكرة، ولزمان، ولرجال، في زمن بعيد. هذا يبحث عن عهد السلف في القرن الثاني أو الثالث الهجري، وهذا يبحث عن السلف في عصر النهضة الأوربي، أو الثورة الأميركية أو الفرنسية، يبحث عن مبادئها ويغرسها هنا أو هناك. هل رأيت الجهد الجبار الذي قام به حسين مروة في كتابه الكبير: **النزعات المادية في الإسلام**، لإثبات الجذور الشيوعية في ثقافة وممارسة المسلمين.

وهكذا تجد جهد متسلِّفة الليبرالية يبحثون عن عقل المعتزلة، أو عن زنديق، أو فويسق هنا أو هناك، لعله يكون سلفًا يؤصل بحجة من الماضي دروب تسلفهم للغرب، وليثبت العمق التاريخي لشهواتهم، كما تظهر هناك.

التسلف المبتور

الواقع يثبت أن التسلف الغربي والتسلف الإسلامي يمكن أن يكون مبتورًا ومشوهًا عن أصله، وأن تؤخذ منه قطع، وتترك أخرى. ويبالغ الباترون في الترويج للأشلاء التي استطاعوا أخذها وقطعها عن أصلها، فيمكن أن يؤخذ من الغرب العمران، والبناء والأسواق، ويبقى الإنسان مقهورًا مستعبدًا خائفًا، ترعد فرائصه من السلطة، ويساعد الغربي في نشر هذا النموذج الذي يرعى ذوقه، ومصلحته، ويبقي على الشعوب تخدم فكرته، وتنشر خياله.

وثبت أن بالإمكان نشر الخلاعة بلا حرية، ونشر الفسق والفجور بلا سماح للصوت الديني كما يحدث في الغرب، ونشر العلمانية بمعنى التحرر من الدين، وليس بمعنى حرية التدين، فالعلماني الغربي يحمل صليبه ينصر المسلمين، والمسلم في دولة تزعم العلمانية محرم عليه أبسط الحقوق الفردية، دينية أو سياسية.

وأثبت المسلمون أن بإمكانهم أن يحيوا شكليات من حياة السلف بغير روح السلف، فقد غابت العلوم العميقة والتسامح، وزاد طلاب الحديث، يبحثون عن أسانيد كتب انقطعت أسانيدها، ويتشبثون بشكليات بلا

غاية، ومظاهر بلا حقائق، يتحدثون عن خلق الإسلام ويحفظون نصوصًا لا عداد لها، ويفقدون أسس الأخلاق، يتحدثون عن العلم، ثم يتبين لك أنهم يقصدون محفوظاتهم، ويتحدثون عن العمل ثم تكتشف أنهم يعنون دفاعًا عن تساليهم عن العمل.

كنت أتتبع كثيرًا من كتب الرحالة الغربيين في الجزيرة العربية، وكان من طريف ما تجده مرعبًا لدين الناس، وقيمهم، وثقافتهم أن يكون مع الغربي جهاز تصوير، أو أنه يرسم أو يصور البلدان أو الناس، وتجد معارك الناس متدينين، أو متحكمين مع هؤلاء الرحالة -غير الأبرياء غالبًا- حول مشكلة التصوير. وجعل هذه كارثة الكوارث، ولا أريد المبالغة في هذا الموقف غير أن تتبع قصص الناس مع أجهزة التصوير مما يستحق البحث في الهواجس المنصرفة إلى قضايا ثانوية عن مقاصد حياتية وشرعية كبرى إلى معارك حول التصوير[1].

أسس السلفيتين: غياب الدور العلمي والعقلي

لا يصح أن نجعل أهداف التسلف أهدافًا سيئة، ولا يليق بنا أن نسيء الظن بدوافع أهلها، فنحن نجد من هؤلاء المتسلفة صادقين في فكرتهم، مخلصين لها يرون فيها طريق الخلاص، وعندهم الاستعداد للتضحية بأنفسهم فداء أفكارهم، لا للمزايدة ولا للكيد، بل هي قناعات، وآمال

1 مما أذكره الآن ما كتبه باركلي رونكيير في كتاب: **عبر الأراضي الوهابية على ظهر جمل**، ترجمة منصور محمد الخريجي، ط2، (الرياض: مكتبة العبيكان، 1424 هـ/ 2003)، عن أمير بريدة، ومحمد أسد في كتابه: **الطريق إلى الإسلام**، ترجمة عفيف البعلبكي، (بيروت: دار العلم للملايين، 1955)، مع قاض في بيشة ثم تنازله عن الاعتراض بسرعة.

حسنة، ورغبة في أن يحقق مجتمعهم ما حققته مجتمعات أخرى من غيرهم، غير أن الإخلاص لا يعني الصواب؛ تجد طالب الحديث يستشهد بنقاد الحديث عبر العصور الأولى، ولكنه يقدس النص الذي وصله، فلا تكبر قائمة النصوص المنقودة في زمانه، بل يحاول أن يكثر من صحيحها، ويتمنى مزيد قيودها، على خلاف مدارس السلف، لأن نوازع جديدة جدت في زماننا، فبمقدار ما يزيد النقد من المخالفين والمعتدين على الدين، يزيد التمسك بكل شيء في حال الاعتداء يصبح ما اقترب من الحمى منه. ويزداد التمسك بالماضي، فله قيمة أكبر. كما أن ملكة النقد للذات وثقافتها تقل، ويضمر العقل والفهم، لأنه لو سار في طريق الفهم والنقد خطوات لربما التقى بالمأجورين والهدامين والمعتدين أو المتزلفين للغرب أو للعدو في نقاط جامعة. ويصبح الحق الذي يجمع مع العدو باطلًا أو مشكوكًا فيه، لأن المتزلف للغرب أقام مرجعية معصومة، هي الفكرة الغربية ونمط التفكير. إن تصاعد موجات الهجوم على العقل في العصور المتأخرة عند المسلمين والشك الكبير في المعتزلة كان بسبب أخطائهم وتصرفاتهم قديمًا، لكن ثمة سبب جديد، أن الذين أرادوا التبعية استخدموا شعارات العقل والمعتزلة للعدوان، فخرجت أطراف بحصاد مر، تسلف بلا عقل، وتغرب بلا كرامة، بل جعل التغرّب باب مهانة، واستخذاء، واستتباع.

جنتان وطريقان

جنة السلف، وجنة الغرب، جنة الماضي، وجنة للمعاصرين في مكان آخر، وأيٍ من العقلاء يكره سيادة أمته كما حدث في الماضي، من يكره

علو شأنه، من يكره أن يسير في العالم فتطأطأُ له الرؤوس خضوعًا، ورغبة في التودد والتقرب والتقليد، حتى بلباسه ولونه ولغته، ومن في العصر الحديث لا يتمنى العلوم والاختراعات، وسقوط العالم تحت قدمي الغربي مالًا وجاهًا ولغة وشعورًا بالنقص، فمن في عالم المسلمين من لا يتمنى حرية الغربي السياسية، والاجتماعية، والاقتصادية، وكثير من الفكرية، واحترام بعضهم لبعض، من الذي لا يتمنى أن يجد حاكمًا يختاره كل بضع سنوات يرفع بلاده قوة وعلاقات وفكرًا ويبذل طاقته، ويذهب من طريق الشعب والقادرين ويتخلى عن الفساد أو أي شخصية هو عليها ليجد العالم أحسن منه، أو على الأقل غيره.

سلفنا جذاب بسبب القوة والروح والاستقلال، أو بسبب انتصار الذات أو الجنس، وسلف الآخرين أو صورتهم جذابة بسبب المشاهدة والمعاصرة، وبسبب القوة وفقد الضعيف ذاته، وبحثه عن طريق لإثباتها ولو في نماذج غريبة بعيدة في تاريخه، أو في تاريخ خصومه البعيد أو حاضرهم.

ضعف الحاضر وتضخم الماضي

لا عيب في مزاج حزين، يدفع إلى أمل وعمل للتغيير، ولكن الحزن الذي يبحث عن دوام له، وتأصيل مستمر؛ ينجب يأسًا دائمًا، وتشكيكًا ونقصًا في إنسان هذا الزمان، فهذا الموقف ليس موقفًا جديدًا، بل بلادة مكررة، والذي وصف بأنه «دائم الأحزان» كان دائبًا في العمل، ذاك حزن فعّال، وإنما ننتقد الحزن القتال، الحزن الفعال حزن لا يموت صاحبه وهو

حي، ولا يستقيل من الحياة والتأثير. أما الحزن القتال فهو الحكم على المستقبل بالعبثية، وبعدم إمكان الإصلاح. تعصف بي وبك عواصف أحزان ويأس لا ننكرها، ولكن لا يجوز لنا أن نستسلم لها؛ واستمع لأبي الطيب يقول:

صَحِبَ النَّاسُ قَبْلَنَا ذَا الزَّمَانَا
وَعَنَاهُمْ مِنْ شَأْنِهِ مَا عَنَانَا

وَتَوَلَّوْا بِغُصَّةٍ كُلُّهُمْ مِنْـ
ـهُ وَإِنْ سَرَّ بَعْضَهُمْ أَحْيَانَا

رُبَّمَا تُحْسِنُ الصَّنِيعَ لَيَالِيـ
ـهِ وَلَكِنْ تُكَدِّرُ الْإِحْسَانَا

وَكَأَنَّا لَمْ يَرْضَ فِينَا بِرَيْبِ
الدَّهْرِ حَتَّى أَعَانَهُ مَنْ أَعَانَا

كُلَّمَا أَنْبَتَ الزَّمَانُ قَنَاةً
رَكَّبَ الْمَرْءُ فِي الْقَنَاةِ سِنَانَا

سيطرة الماضي على المستقبل

هناك تمتع سلفي بمزاج وخيال أن يسيطر الماضي على مستقبلنا، تاريخ مجيد نحييه نعم، ولكنهم لا يرون التاريخ إلا خيالًا جامدًا، لا يرون التاريخ إلا لفتة للوراء، لا يرون المستقبل إلا وفق ما كان، وتبقى هذه صورة مؤلمة للمستقبل الذي لن يكون، ولن يأتي، فهم يقدمون مقدمات ومسلمات وخيالات محبطة وفاشلة وغير عملية قبل ولادتها، نسترد الخليفة الأموي المتعصب للعرب، أم العباسي المائل للفرس كالمأمون، أو

للترك كالمعتصم. الخليفة العباسي المائل للتشيع أم للتسنن؟ صلاح الدين الكردي المحارب للصليبيين، أم عبد الحميد التركي الحائر في عالم لم يعد يستوعبه، ولا التاريخ يفهمه.

من يبحث عن المستقبل لا بدّ له من نسيان أشياء كثيرة من الماضي، لا بدّ له أن يتخفف، قسرًا وإلا فسوف لن يستطيع أن يحمل كل أعباء القرون، إن عاتقه لن يستطيع حمل أمجاد الجميع، ولا أخطاء الجميع، لا الذاكرة تسع، ولا العقل يحتمل، ليس لديه قدرة أن يفلسف كل تلك المراحل التاريخية، لا بدّ له أن يترك ويهمل أشياء كثيرة. ولقد رأينا القرآن يهمل أساطير وحقائق كثيرة من التوراة والإنجيل، ويتحدث عن قريش ومكة والجزيرة وجوارها، ويدلهم على الطريق، ويوجههم ويعطيهم ملامح عِبَر لا غير.

المستقبل أمر نفكر فيه ابتداءً، نحمله أمانينا، ونضع لهذه الأماني برنامجًا للوصول لها، حين نرسم برنامجنا لدينا من الإسلام صيغة مستقبلية، قابلة للحياة، والنماء، والتطور في المستقبل، لا نعدو ولا نعتدي على قرآننا فيها، لا نهدم علاقات راسخة، ولا نستسلم للقيود التي جاءت قسرًا من غيرنا، من خصومنا في الخارج، ولا نستسلم للتاريخ الذي عاشه أجدادنا، فلسنا محاسبين أمامهم ألَّا نتبعه، ولسنا محاسبين أمام الغرب ألَّا نتبعهم، لن نعيب على أنفسنا يوم نختار طريقًا سلكه مسلمون، ولا طريقًا سلكه غيرهم؛ ما دام يحقق لنا مصلحة، ويفتح لنا باب سعادة، فدور كل شيء جاء أو سيجيء، ودور كل جهد حدث، أو سيحدث أن يجعل من أنفسنا

سعداء، ومن أمم العالم، فضلًا عن أنفسنا نحن نبحث عن الخير للعالمين، ويجب أن تكون هذه هي الرسالة الصادقة للمستقبل كله.

ملامح ذلك تقديس الدارس وانتقاص المعاصر والمخالف بلا وعي به.

التعلق بالأشكال وغياب المعاني

من طريف السخريات التي ساقها علي شريعتي في كتابه **العودة إلى الذات** عن سلوكيات المجموعات المتغربة في بلاده، أن بعضهم كان يعلق في مجلسه حلس الحمار، كمظهر للتراث والحفاظ عليه وعلى التقاليد، وذلك نصيب بلادهم وتراثهم منهم، وهذا عنصر الوفاء للحضارة الفارسية وللمجتمع الفارسي السالف، في الوقت نفسه يفكر بأن يصبح أيضًا متغربًا، ويبذل جهده في جعل مظهر حياته غربيًا، ولكنه يحيا هذا الاضطراب والتبعية من جانب، وحنينًا مظهريًا، وربما قناعة من جهة أخرى لا يصل منهما لشيء.

وتجد متدينًا بالغ التدين، مغرقًا في التعامل العلمي مع منتجات الثقافة الغربية، ويستهلك وقته في الحفاظ على شكليات قديمة من شكليات ثقافة المسلمين!

البحث عن المخرج في الماضي وليس في بناء خطة ولا رؤية جديدة للمستقبل

كلتا السلفيتين ترى المخرج من أزمات الحاضر يكمن في تقليد زمن أو ثقافة أو عصر محدد من الماضي، فهي حركات وثقافة توهمك أنها تعمل

للمستقبل، بينما هي تصنع الماضي مستقبلًا، ولها عذر شكلي أن المجد كان سابقًا، وأن النموذج كان في التاريخ الماضي، فالحركات العلمانية العربية القومية والإلحادية المعاصرة، هي حركات وأفكار قديمة جدًّا، ومستوردة من الخصم الآخر، وهي عند السلفيين الإسلاميين من الماضي الجميل الذي يسعون لجعله مستقبلًا.

ابن تيمية أنموذجًا لفكرة مرفوضة في زمن ضعيف

من طريف ما كُتب عن ابن تيمية كتاب: **ابن تيمية ضد الدِّين العام** فقد سجل الكاتب مخالفة ابن تيمية لمجتمعه، وكان متبعًا في فترات عديدة من تطوره الفكري، ولكن وعيه كان من الممكن مشاهدة صعوده بين الكتب الأولى والأخيرة، فلما قل أو انقطع تزلفه للمتصوفة في زمانه تعاظم الهجوم عليه، وعادوه بكل ما استطاعوا. وعندما توفي ضعف نفوذ أفكاره حتى في مدينته، وعاد نجم مخالفيه أقوى منه في حياته، والمحيي الحقيقي لشيء من أفكاره هو محمد بن عبد الوهاب، فقد أحيا منها ما يطيقه هو، بثقافته الأقل، واستعداده الأقل أيضًا، وبحسب ما يطيقه زمانه، فللزمان كما للشخص إمكانات، وتقدير للأفكار، فالعمق العلمي والفلسفي لا يتمكن ابن عبد الوهاب منه، وزمانه ومكانه لا يسمحان له بذاك المستوى، فكان مختصرًا، ومقربًا لبعض أفكار الشيخ الكبير، ونفع أمته في زمنه وبعده نفعًا كبيرًا. ولا بدّ من أخطاء في تعامل الناس مع الأفكار، لا يسلمون منها.

كان الشيخ مقلدًا لابن تيمية، ومتخففًا من سلبيات كبيرة للتسلف، وكان عمليًّا جدًّا، وذلك ما غرس مصاعب لمن بعده، كما أن تمتعه بالمشاركة في السلطة عذب من بعده، ممن يتذكر خبره، ويحيي أخبار تاريخه، ولا يجد نفسه نائلًا قدره، وليست لديه مواهبه.

والأفكار قد تستهلك كما الأشياء، أدت خيرها، وبقي أذاها، ذهبت لذتها وإشراقاتها وبقي نكدها أو تاريخ أخطائها، ينتقي اللاحق منها ضرر خصومه، ويجلب منها منافعه، ويصبح الدين ميراثًا تجاريًّا لمنتفعين لا إصلاحًا أمميًّا مطلوبًا مرغوبًا. ولهذا فمن لا يعي قضية التجديد سيجعل من الإعادة البليدة تجديدًا، وهذا وهم خالص؛ إذ إن بعث الناس والإلحاح على أفكار غابرة من زمن مضى يجعل الأمر تكلفًا وسباحة ضد العصر، فمن العيب أخذ أفكار للّحظة الحاضرة من التاريخ، أو تخيل كل إصلاح وكل فكرة موقفًا أبديًّا.

أفكار زمن القوة وثقافة مجتمع القوة وثقافة زمن الضعف

زمن الجدة، والقوة الفكرية للتعبير عن الأفكار فيه سمات، منها المغامرة بالقول الجديد المبني على حجة ومعرفة، أو مصلحة مشهودة معتبرة، فإن لم تكن الطرق مفتوحة لإبلاغ المواقف ونشرها في مجتمع يرعى الأفكار والمفكرين، فإن مغامري الأفكار يسربون قناعاتهم بأساليب غامضة ومختفية، ويكتبون بأسماء وهمية، كما حصل في تاريخنا، وفي تاريخ غيرنا أيضًا، فرجل مثل أبي العز الحنفي، أو فولتير كتب بغير اسمه الحقيقي وفولتير ولينين وأعداد هائلة على مدار العصور، وفي شتى الثقافات.

وتكتسب جاذبية بسبب المنع، والمطاردة وإن وجد حزب يحملها كانت أبلغ في التأثير.

لأن المجتمع الجاهل أو المغلق يواجه الحق بالنفي والتكفير، والتكرار لأفكار قديمة ضعيفة؛ يردد تقديسها، ويؤيدها تعصبًا لا فهمًا، ولا تقديرًا لفائدتها، إلا الفائدة الوراثية والتأييد الشعبوي المستغل، فيكون الحل معه في إغوائه من قبل القادرين على التحايل عليه، والمجتمع القوي الواعي؛ مجتمع عملي، يواجه الأفكار بموقف المستوعب المناقش المنكر أو القابل بنقد واضح، أو قبول واضح، دون خفاء ولا لبس.

مخدرات المثقفين

المثقف بحاجة إلى أن يسمع صدى قوله، وأن يجد التشجيع، ولكن التأييد والتشجيع والدعاء وتصفيق الجماهير والثناء المتبادل الذي يلقى رخيصًا قد يكون مخدِّرا مضرًّا بالمثقف، وفي مجتمعات التسلف لا تجد وللأسف أحيانًا منارًا هاديًا للتفريق بين التأييد الذي فحصه أهل القدرة والخبرة، فتأمن للتوجه وتفرح بقولهم، لأنهم عن وعي قالوه، ولا تفرح أحيانًا بالتأييد لأنك تعلم أن السلفي المتدين أيدك لأنك وقعت في مسلمات خصمه، وتعلم أن السلفي المتغرب أيدك أحيانًا لأنك كشفت عوار خصمه السلفي المتدين.

والمثقف -أعلن أم لم يعلن- بحاجة لأن يذوق طعم مخدرات المدح؛ لأنها فطرة بشرية في أن يحب أن يذكر بالخير، ويمدح به، وأن يرفعه محبوه عن الوقوع في النقص والخطأ. ولست أدري عن مشاعر ابن تيمية وهو

يذوق مخدّر المدح ممن قال له: «أشهد أني لم أر مثلك، وأنك لم تر مثل نفسك».

والذي يجعلنا نخاف من مواقفنا أمور؛ منها أننا نعرف أن الشجاع قد يكبت رأيه، ويخاف على من يعجب بقوله من أن يضل بسبب المدح، ويخاف غيره من أن يقال لقد أيد قولًا مريبًا أو جديدًا من شخص ليست له معرفة به. ولم يتعود مجتمعنا وللأسف على أساليب منصفة، بل شتم ورد وقدح غير مفسر، أو تأييد مبهم غير مفسر.

إما المعرفة وإما المنفعة، أو صراع الحقائق والأخلاق

لا شك أن المعارف تجلب المنافع، كما تجلب الهموم والأحزان، فإن كان من ازداد فهمًا ازداد حزنًا، لأن ضميره حي تجاه استخدام المعارف الملقاة عليه، فإننا نفترض أن متلقي المعرفة قادر على تجاوز أحزانها، ومقتضياتها الخلقية، وما يجد المثقف الأمين من حرج مع نفسه -إن كان صادقًا- بين مقتضى المعرفة من أمانة تعريف العامة والخاصة بها، كما هي، وبين مقتضى منفعته الذاتية؟

فإن المعارف الدينية، عند المتدين، وإن الأخلاق عند الملحدين من ذوي الروح الإنسانية الحية يستوي أثرهما النفسي في عالم الروح والضمير عند الطرفين الملحد والحي الضمير؛ فكلاهما يطالب بانسجام المعرفة مع الأخلاق، وليس أن تسخّر المعارف للمنافع الذاتية الفردية، فإن تسخير المعارف للمنافع الذاتية التي ستضر غالبًا بالمجتمع ستكون مثل وضع المعرفة بيد اللص!!، فإن اللص له معارف أقل من معارف الحداد

والمهندس، وأدواته أقل تقدمًا من تقدم أصحاب المهن المحترمة، ولكن هذا القليل من المعرفة أو المهارة موجه توجيهًا مرذولًا، فاللص لا شك عنده معرفة، وعادت له معرفته بمنفعة ذاتية، بل أحيانًا متجاوزة لذاته، كأسرته وأقاربه، ولكن تقييم هذه المعرفة اجتماعيًّا وإنسانيًّا هو في عالم الرذائل، في كل المجتمعات. وإن افترضنا أنه تغلب على ضميره، وتم التخلص من نكد نداء الأخلاق ومن ضغط المجتمع القريب ومن قيمه الإنسانية، فإن هذا في محصلته النهائية لا يجعل من استثمار المعرفة السيء موقفًا خلقيًّا محترمًا، وإن استطاع فرد أو مجتمع السكوت عن ذلك، ولو لفترة من الزمن.

ولهذا فإن المعرفة لها جانب أخلاقي، ولها نداء للضمير تصدره، وقد يتغلب الشيخ عليه، ويعتسفه الليبرالي، ولكنه قائم هناك أبدًا، يقول للمنحرف كذبت، وللصادق أحسنت، فالناس ذوو الضمائر والخلق -من مؤمنين، أو ملحدين- لم يغيبوا ولن يغيبوا، وهم مصدر خوف للشيخ المحتال، والليبرالي الختّال من الذين يبيعون ضمائرهم، وثقافتهم، ودينهم أو معارفهم بدراهم قليلة. إن منهم من تلمّ به الروح الحية أحيانًا، أو نداء الأخلاق؛ فيتعذب بما يعلم من أنه يحارب المعرفة أو الدين بمنفعته الذاتية، وأنه حارس على درهمه مخاصم لخُلقه، وأن ضميره نائم وشهوته حية، وأنه معاد لكرامة الجميع في سبيل مكسبه الشخصي، ويعلم أن دينه، ومعارفه، ومكانته الاجتماعية ما هي إلا مهارات لكسب الدرهم والدينار، وضد الخلق والدين، مهارات مثل مهارة السارق، قد يعدها صاحبها مهارات راقية، غير أنها في عين اللص أكثر ضررًا من مهارته، لأن ضرره محدود، وضرر المثقف أو الشيخ متجاوز الأثر، وأبلغ في الضرر، لأنه

يفسد الروح، ويفسد الخلق، ويدمر مستقبل الأجيال القادمة، ويفسد المعارف الدينية والقيم الخلقية، فالباب قد يصلح قفله، وسور البيت قد يعاد بناؤه، ولكن القيم والأخلاق والمعارف والعلوم المشوهة التي تطالها ألسنة وأقلام المفسدين باسم الدين، أو باسم العلمانية، قد يصعب إصلاحها، وتصبح تكاليف كشف الزيف بالغة الثمن.

والمزيف للأفكار والمعارف ضعيف، ملوم حاضرًا وغائبًا، فبراعة قوله لا تستُر خيانته، وجلب الأعذار والمبررات لتكون أدلة؛ لا يرفعها إلى عالم الأدلة، ولا يشفي الضمير، ولا يصنع مصالحة حقيقية. إن هذا المثقف، أو الشيخ يكسب مكاسب الجاسوس الذي يخون قومه، فهو لا شك يستفيد منفعة عاجلة، ويتلقى أجره كأجر المهن النادرة، ولكنه يدخل حربًا خاسرة، ليس فقط بما يضر به أمته، ولكنه يبيع ضميره، ويبقى في عذاب مقيم.

زار طالب علم شاب أحد كبار العلماء في إحدى الحكومات العربية، ولاحظ الشيخ أن هذا الطالب لديه إمكان أن يكون شيخًا له جمهور، فقال يا بني أرجو لك التوفيق، ولكني أنصحك ألا تدخل مع الحكومة في شيء، فأنا دخلت فتورطت وتضررت، ولم يعد بإمكاني التراجع[1].

ولهذا فمن المهم أن يكون للمثقف وللعالم مصدر رزق من مهنة يمتهنها، لا تجعله يعيش ويأكل من بيع أفكاره، فسوف يبيع بعدها ضميره، وأنت واجد في غير مكان من أخبار السلف والخلف، من

1 هذه فحوى النصيحة لا نصها كما سمعته من المنصوح، ولولا أن الناصح والمنصوح أحياء وقد يسبب لهم هذا حرجًا لذكرت اسمَيْ الرجلين.

مؤمنين وملحدين تحذيرًا دائمًا من هذه المواقف، تجدها عند سفيان الثوري في عمله في التجارة، وتجدها عند تشومسكي وإدوارد سعيد في عملهما في مهنة التدريس في جامعات لا تشترط البراءة من الأخلاق، أو الكرامة، أو التخلي من الضمير والخلق[1] - كما هو الحال -للأسف- في أكثر الجامعات في بلاد المسلمين- فمن له موقف مخالف للاستبداد، أو يحمل على الفساد فلا وظيفة له في الجامعة، وكأن المعرفة في كثير من بلاد المسلمين في عصرنا تشترط لتعليمها خيانة المعرفة، أو على الأقل الالتواء على قيم العلم والمعرفة.

الانسجام بين المعرفة والمنفعة، أو بين الأخلاق والمعارف أمنية الإنسان السوي، فنداء بعض العلماء إلى العلم قبل العمل استنادًا إلى الآية: «فاعلم أنه لا إله إلا الله واستغفر لذنبك» صحيح، بشرط ألا يعبث بالعلم، و: «اقتضاء العلم العمل» صحيح، وأخلاقي، ويبعث على الانسجام والسلام الروحي للإنسان، ولكنه في الحقيقة من أصعب ما يمكن النداء له، ففي المناطق التي يسودها الاستبداد، يتدخل الشرطي أو الجاسوس بين الشيخ وقرآنه، وبين المتغرب وثقافته، ثم يقول هذا مسموح بتعليمه،

1 ليست كل الجامعات الغربية تحترم الرأي السياسي المخالف، فقد انتشرت فيها عصابات يمينية، ويهودية تحارب المسلمين واليساريين، بل وفي الجامعات اليسارية تحارب المتدينين المسيحيين، غير أن هناك مستوى يصعب على الجامعة أن تضحي به، وإلا فسوف تطعن في قيمتها وسمعتها عندما تشتهر بمحاربة المفكرين الأحرار، ومن أصبحت لهم سمعة كبيرة وبخاصة في ميادين أخرى غير تخصصهم، فالشخصيتان المذكورتان شهرتهما في تخصصاتهما كبيرة، فيصعب على الجامعات هذه فصلهما بسبب سياسي. وفي المجتمعات المتخلفة سياسيًّا تصبح السياسة جريمة لا تغتفر، وكأنها نوع مخدرات مضر يفتك بالمجتمع عندما ينبهه إلى حقوقه الضائعة، فيكون دور الجامعة والمسجد التآمر على أخلاق الناس وضمائرهم، وصناعة عالم من الرياء والأمية والجهل باسم العلم.

وذاك لا يسمح به، وما يعرف لا يقتضي عملًا، فالعمل فقط فيما يراه الشرطي صحيحًا، وهنا يصاب العارف بالأذى، وإن أراد عيشًا سالمًا سكت، والساكت أشرف ممن يسخر المعرفة لأنانيته وذاته الصغيرة، أو يجعل العلم سلسلة من الأعذار.

تضخم الخلاف الجزئي

لو شهدت مثقفينا يصطلمون على فتافيت فروق بين المثقفين الغربيين القدماء ومثقفي المسلمين القدماء لرثيت لهذه النفوس السلفية، حيث لا تفيدها السلفية في شيء، إلا تظاهر وتطاول بأن فلان يعرف من خبايا العصر العباسي أو عصور الظلام الأوربية، أو بداية التنوير أكثر من غيره، وكثير من تلك المعرفة لا تنفع، وعندما يسوقها لنا مسوقها ليس لينفع بها، بل ليغرقنا فيها، لأن دور الثقافة ليس واضحًا عنده، وهناك فرق بين من لديه ثقافة، ومن لديه استخدام للثقافة. من لديه ثقافة عصر فهذه هواية فردية قد تكون مفيدة أو مضرة، قد تكون ناتجة في الأصل عن مجرد شهوة، أو متعة معرفية وقد تكون صادرة عن إلحاح تدين، أو قومية، أو عنصرية ما.

وأذكى من هؤلاء المثقفين أناس قد يكونون من عامة الناس أو من سياسييهم يحولون الثقافة إلى شيء له معنى، وقضية لها هدف، فيلتفون على المثقف واعيًا أو ساذجًا ليصنعوا من ثقافته زلفى لبلوغ فكرة أو عمل، وهنا يصبح التثقف تزلفًا. والعبرة بالنهايات الحاضرة، فلسنا مسؤولين عن بدايات فكرة ما، ولا عمل غابر، مسؤليتنا أن ما كان مهمًّا للإنسان في

زماننا، أو مستقبله، من المهم أن نصوغه ليكون نافعًا بالغًا قاصدًا يسعد الإنسان، ومن جوانب سعادته حريته، وغناه الروحي، ومجتمعه المألوف الذي يعينه على تحقيق طموحه مرة، أو لجمه عندما يضر أخرى.

غياب الهدف من المعرفة يجعلها إرضاء للمعتاد في المجتمع، وتأكيده، وصناعة اتفاق حوله، أو «صناعة الوفاق» الاجتماعي والمعرفي به، خوفًا من أو هروبًا إلى تأنيس المعرفة، وتذليلها لمن يحب ركودها، أو يخشى فرارها إلى علو يتجاوز قدرته العقلية والعملية، أما الإبداع فقد يكون هو «صناعة الاختلاف» هو جعل هذه الثقافة متمردة، طامحة منتجة، لوجوه عديدة جديدة من الفهم ومن الناس.

الإشكالية الزمنية: حتمية وقوع المقلد في خطأ زمني

الكلام عن السلف في غير هذا السياق موهم، فكيف وقد ضممنا جناحي التسلف الإسلامي أو العربي والتسلف الغربي، فيصبح الأمر بحاجة لتحديد الزمان، والزمان هنا في هذا النص يقصد به هجرة الإنسان لزمن قديم، حيث يقتطع من ذلك الزمن البعيد قطعة، ويرى هذه القطعة هي الماضي، هي السلف الصالح، هي الخلق الحجة، وهي المحجة، ففي الشأن الإسلامي يهجر المتسلفة زمن الرسالة وسلوك وفعل الرسول، وغاية وروح رسالته، ويقبعون في منعطفات الفتن، وتأريخ المشكلات، وانحراف المجتمع وأزماته، فيغيب عنهم الصفاء، وتبهت الغايات، وتلتبس الأهداف، ويصبح للتراث الحضاري دور خطير في صناعة حاجب بين الدين وبين الأتباع، ويصبح تاريخ الفرق والفتن أشد

حضورًا من القرآن والسنة، وينظر للرسول صلى الله عليه وسلم، وكأنه نبي لطائفة منتصرة على غيرها، والطائفة المنتصرة في عهد الرسالة هي نحن، الذين نقلد شيخًا جاء بعد قرون من زمن النبوة.

وهكذا المتسلفة للغرب، لا يرون في حضارة الغرب وفوائده التي كسبها الإنسان إلا معركة مذهب مع آخر، وانتصار مدرسة على أخرى، فالغرب عندهم انتصار العلمانية على الدين، بل والعلمانية عندهم علمانية فرنسا، المحاربة للدين، أو علمانية أميركا، دين محاصر، أو فاعل ولكن تحت ستار المصالح الوطنية والثقافة والعادات. الغرب الذي يستوردونه قطعًا ممزقة لا تصنع عندنا إلا اضطرابًا، وتمزقًا، وتبعية غير واعية، فلا ثقافة تجيء ولا اعتدال يسود، ولا ثقة تزرع في بيدائنا، بل شك وشبهة وتهم عمالة لا تنتهي.

سلف إسلامي لا تستكمل معرفته، بل تتغلب الأوهام حوله وتكبر صورته، وتغيب روحه، وغرب يرهقنا ويذلنا ونتبعه ولا نهتدي لسر قوته، بل نختلف عليها من سابق الزمان.

هذا نداء لفهم روح الإسلام ورسالته، دون حواجز التاريخ وأثقال التفسيرات المنسوبة للزمان وللأشخاص، نتخفف من أثقال التفسيرات الزمانية والتواريخ التي تصنعها ظروف الإنسان، ونذهب للرسالة، في زمانها، بل نخفف من أثر الأشخاص والظروف، ونكسب الرسالة في أصولها، وروحها كما نحتاجه.

ونتجه للغرب أو للشرق، أو للنفس نبحث عما يصلحها في زمانها هذا، فليس بمقدور إنسان ليس نبيًا في زمان أن يتجاوز الزمان والمكان، ولا أن

يزعم صفاء تفسيره من عوامل الزمان والمكان، أو الشخص والبيئة. وهو أقدر بلا شك على معرفة ما يمكنه وما يليق به.

والإنسان متحيز بطبعه، ولا يحسن التصرف ما لم يعرف مكان وجهة تحيزه -وقد يعترف، أو لا يعترف- قد يبالغ في تحيزه، وقد ينكره، ويزعم تجرده، ولكن يبقى فعله ملكًا للمحاورين والدارسين، الناظرين له في زاوية ما، وحزب ما، فليكن كذلك فهو يريح دارسيه كلما ثبت لنفسه، وللناس دائمًا مدى جزئية نظرته، وكلما خلعنا لباس القدسية عنه، أمكننا أن نرى الحق به وبدونه. أو أن نعيش ثقافة البحث عن الحق دون إرهاب الرجال وثقل أقدارهم، حينما يرتفعون فوق الحق.

الموروث البشري مرجعية غير ملزمة

المقصود هنا هو التزلف السلفي الديني والتزلف السلفي الليبرالي، فالسلف عند الأولين هو مراحل زمنية قديمة في تاريخ المسلمين، كما أن التسلف الليبرالي أو التغرب هو اتباع السلف المتفلت عن الدين غربيًّا كان أو شرقيًّا، وأن التزلف يكون للماضي رغبة في الهروب من مجهول لا عدة لهم في مواجهته، ورهبة من أن يقال: «خالفوا»، ورغبة في تشجيع ماض قوي ليحسبوا من أنصاره، ورهبة من حاضر لا طاقة لهم في مواجهة عيوبه، والمغامرة في التفكير بإصلاحه، وتزلفًا لحراس الماضي من المعاصرين، أو للقوى الدولية والثقافية الراعية في العصر الجديد.

التزلف بالتسلف

التزلف: التقرب والاسترضاء والتقليد. وزلفى: قربى، والتظاهر بأن المتزلف قريب مماثل ومشابه، أو على الأقل يحب أن ينسب. يكون التزلف لقوة سياسية، أو لمجتمع تعود عادة فيقوم بعضهم بالتزلف لذلك المجتمع أو لتلك القوى أو الأحزاب أو العادات. والتسلف التظاهر بتقليد فترة من الزمن رجالًا ونظامًا، وغالبًا ما تكون فترة سابقة، قد يكون زمنها ألف ومئتي عام -أي بعد نحو مئتي عام من النبوة- أو مئتي عام من تاريخ الغرب، أو زمن أقل أو أكثر من التاريخ، حيث لا يكون التسلف البحث عن وحي ولا عن خلق، ولا عن معرفة ولا عن اختراع، بل مجرد حنين زمني وتعاطف شكلي.

وكم كنت أخشى على التعريف بالموضوع من قارئه، فقد يقف عند صورة أو تعريف، ولما خشيت من الفارق بين التعريفات والموضوع، أجلت التعريف، لأنه ليس جامعًا ولا مانعًا، فها أنا قد عرجت على مهمات الموضوع من داخله ومما يحيط به، ولهذا كان خيرًا للتعريف أن يتأخر. ليصبح معبرًا عن بعض مقاصد النص.

في سوق السياسة

بعد أن تصعد هذه الحركات الفكرية ظاهرًا، والسياسية بحكم مصير الأفكار الحركية عادة، فإنها تعرضان للبيع في سوق السياسة، يبيعها

سماسرتها أو معتنقوها أو المتاجرون بها –وقد يكون من بين الباعة معتنقون سذج يقودهم من يفهم سوق الأفكار– بثمن بخس، وهو تظاهر الحاكم أو المستعمر بأنه أصبح معتنقًا للفكرة، أو يبادر سماسرة الفكرة بإلقاء شعارات ورسوم ومظاهر الحركة المطلوبة على السلطة القائمة، فلنقل مثلًا أن فكرة سلفية كالقومية لها دعاتها في مجتمع ما، ورأى دعاتها أنهم بحاجة أن يتصالحوا مع الوضع السياسي القائم، فقد ملوا النضال، أو أعجبهم الثمن الذي سوف يدفع لهم مقابل التنازل، أو شكوا في أصل فكرتهم، أو رضوا بربع الفكرة، كاللغة مثلًا أو شعارات الحركة، فإنهم في سبيل تبرير تنازلهم عن الفكرة سيقولون لقد تبنت الحكومة فكرتنا وانتصرت قضيتنا، بل وربما انتهت معركتنا على هذا الصعيد أو ذاك. وفي المثال الديني يلقي المتاجرون بالدين على السلطة كل الهالات الدينية، والمكانة، والشعارات، والألفاظ التاريخية التي كانوا ينادون بها ليلبسوها الحاكم القائم الذي يقيم سنن الله، وفرائضه كما لم تقم من قبل، ويلتزم العدل، وفي عهده قارب الدين أن يكون كعهد الراشدين فهو من جدَّد بنيانه، ورفع شعائره.

وتباعان في سوق المال

تقف السلفيتان من التجديد والإصلاح الموقف نفسه، عداءٌ شديد لأي تغيير، أو فكرة تغيير في المسارات التي هي فيها، إلا مسار تقوية لما هي فيه، مما يعود لها بمزيد من مال أو جاه، وتعاديان أي توجه للحق يضعف من المميزات المالية والدعائية.

لهذا لو جئت للمدرسة السلفية الدينية بحقائق شرعية، أو مصالح اجتماعية تقلل من مكاسب المشايخ في دنياهم، أو تقلل من عائدات نشر العبودية للغرب عند المتزلفة إليه لرفضوها، فهي نقص من منافعهم. ولو نظرنا لواقع الحياة لأدركنا أن الوكيل بنشر كل ما يضمن مصالح الغرب إنما ينال ذلك بمرتب، أو شبه ذلك، وأن الشيخ يقوم بعمله مقابل مرتب أيضًا، فإن أي شيء يمس مصدر الرزق، سيكون عند الأول تطرفًا، أو ربما إرهابًا، وتخلفًا، وسوف يلوك ما رماه الغرب في فمه من كلمات يشتم بها من يخالف مصالح أسياده، أما عند الشيخ فإن كل فكرة تهز مطامحه المالية، أو تقلل من دخله، أو تهز سمعته وما هو عليه أو تكون مستعصية على فهمه فلا بدّ أنها ستكون مليئة بالانحرافات، والمخالفات لأصول الدين وفروعه وما جرى عليه السلف الصالح، وربما تكون فسقًا أو كفرًا، وفي أقل الأحوال بدعة. يقول الوردي:

> إننا نظلم رجل الدين حين نطالبه أن يكون من دعاة الإصلاح في الدين، ونحن في هذا كمن يطلب من صاحب دكان أن يقوم بعمل ينفر الزبائن منه. إن كل دعوة إصلاحية لا بدّ أن يقاومها العامة ويضطهدونها، وقد رأينا في «النبي» مثالًا على ذلك، وإذا أراد رجل الدين أن يقتدي بالنبي في دعوته الإصلاحية فمعنى ذلك أنه يجب أن يسد دكانه، ويبوء بالخسارة علاوة على هبوط منزلته بين الناس (...) أكثر الناس عاميون في تفكيرهم والنادر منهم من يكون متفردًا غير مندفع بتيارهم، وهذا ينطبق على رجال الدين بشكل واضح، فالمعروف عن معظم رجال الدين أنهم

> يجارون العامة في ما يبتدعون من عقائد وطقوس، ولا نكاد نسمع عن أحد منهم أنه دعا إلى الإصلاح إلا مرة واحدة في كل جيل أو أقل من ذلك! نلاحظ أن الكثير من رجال الدين يؤلفون الكتب في انتقاد عقائد الآخرين، وهم يحسبون أنهم مصلحون. وهذا في الواقع ارتزاق لا إصلاح، فهم في عملهم هذا إنما يبتغون زيادة عدد الزبائن على دكاكينهم. ولو كانوا يقصدون الإصلاح حقًّا لبحثوا في عيوب قومهم ودعوا لإصلاحها، بدلًا من البحث في عيوب الآخرين[1].

وددت لو أن الدين انفصل عن المستفيد منه ماليًّا، وأن الناس يقومون به بغير هدف المعيشة منه، ولا التكسب بمناصبه، ولا بالعمل من خلاله، إذًا لبقي أحسن حالًا، وأنزه وأنظف من رغبات المشايخ، ومن شهواتهم، ومن ضعفهم، ولو كان بإمكاننا أن نرى ثقافات العالم غربًا وشرقًا بعيدًا عن الوكلاء والسماسرة لأمكننا أن نرى العالم قربًا من واقعه، ولرأينا فيه جانب المتعة، والشر، والخير، والفساد، والغلو، والمنفعة، ولكنه لا يقدم لنا كما هو إنما كوسيلة دعائية، تحقق منافع الوسطاء أولًا، طرفًا قريبًا مستفيدًا؛ ثم تحقق غاية المستفيد المستعمر الغربي.

ومن ملاحظة سريعة، وموقف مشهور هو أن الحكومات الغربية مثل: الأميركية، والبريطانية؛ يحرم قانونها تدخل الحكومة في توجيه الإعلام، وفي ملكيته، ولكن الإعلام الموجه للمستعمرات العربية تقوم الحكومات

---

1 علي الوردي، **لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث من 1831-1872**، ج2، (بغداد: مطبعة الإرشاد، 1971)، ص 326.

بدعمه مباشرة، حتى إن القسم العربي في محطة البي بي سي البريطانية تنفق عليه وزارة الخارجية البريطانية، وفي أميركا الحال نفسه، لا تتحكم الحكومة رسميًّا، ولا مؤسسيًّا في الرأي العام، ويبقى للرأي العام دوره في صناعة التوجه المخالف، والتعقيب، والتصحيح للمواقف الرسمية، وإن كان في الصورة الأميركية هناك شواهد عديدة مؤخرًا على مجانبة الحكومة لكثير من أسس الحريات عند وقوع الحروب، وبخاصة مع المسلمين.

ولكن في هذا الزمان -زمان المعرفة والمعلومات- زادت أسعار الكلام، وأسعار الآراء، فلم تعد كالسابق، والإعلام مصدر رزق هائل للبشرية، ولسماسرة الأفكار، ولأصحاب الحلول السياسية والروحية والاقتصادية، فأصبحت وظيفة الكلام في الدين، والرفع الروحاني موردًا للغنائم لا يحد، وهذا يقلل من المناداة بعدم بيع الدين، وعدم المتاجرة بالتغريب، فهاتان حركتان يصعب الوقوف أمامهما في لحظة هياج سوقهما.

وإذا كانت السلفيتان لا تنقذان فما المخرج؟

وإذا كنا ندعي أنهما مخرجان متخيلان لا يقودان لحل عملي، ولا ينقذان من عبوديتين للتاريخ وعبودية للمتسلطين القادمين من بلاد بعيدة، أو النابتين في أحياء قريبة، فلا مناص لعقلاء الناس ومنصفيهم والسعاة للسعادة الإنسانية من أن يبحثوا عن طرق يحققون بها سعادتهم، والبحث عن سعادة الناس، بحث يوحي بالسخرية ممن يقول هذا، فلم أنت مهتم بسعادة الناس، إن كان الناس أنانيين، ومقلدين وأنت منهم؟

وردًا نقول: إن الناس فيهم نزعة فردية أو أنانية غلابة، وفيهم عرق من التقليد دسّاس، ولكنهم مع ذلك أكبر من أن تحاصرهم فكرة، أو يلم بهم تصنيف، فهناك روح جماعية، ومزاج عام، وحمية للقطيع أو للجمع تضحي بالنفس فداء الآخرين، وليس فقط من أجل الذات، فهم محبون للقريب منهم، ولديهم نزعة دفاع عنه بريئة غالبًا، وليست أنانية دائمًا، ولدى بعضهم رغبة جارفة في التميز، ورغبة أيضًا في الفهم، تجده في السبعين ولديه فضول الطفولة -أحيانًا- في المعرفة؛ فليس مقلدًا، بل يريد أن يعرف، أن يفهم، أن يستفيد مما يتغير أمامه.

وهذه النزعات نزعات الصدق في حب الخير للنفس وللآخرين حقيقة بشرية، وطبقت هذه التجارب على الحيوانات وكانت آثارها عجيبة، وتبين أن الحيوان لا يود أن يضر بغيره إلا في وجود حاجة مهمة له، ولا يضر بقطيعه إلا في أقصى الظروف قسوة.

جرت تجربة على قرد لمعرفة عددٍ من نوازعه، فكان يُقدَم له الطعام بعد لمسه زرًا كهربيًّا، حتى اعتاد أنه كلما احتاج طعامًا أو غيره؛ فما عليه إلا أن يضغط الزر، وبعد تعوده رُبط هذا الزر بمكان آخر، وفيه حيوان من جنس آخر، فكلما ضغط صاح الحيوان الآخر بسبب الالتماس الكهربي، فتتحقق للقرد رغبته، ولكنه يعلم أنه يؤذي الحيوان الآخر، فقلل من ضغط الزر، وضحى ببعض شهواته، وجربوا مرة أخرى أن يكون الحيوان من جنسه نفسه فكان إشفاق القرد أشد، فلا يضغط إلا في حال الضرورة.

قصدت من هذه الفكرة الإشارة إلى أنه حتى الحيوانات لديها تضحية لمصلحة الحيوانات القريبة من جنسها، وحتى البعيدة من جنس آخر،

وأن اختزال الإنسان في أنانيته ليس صحيحًا، وأن هناك من سيعمل وسيضحي لما يراه يسعد الناس، وعليه أن يسعد نفسه والآخرين دائمًا وإن تضرر[1]. فالحكم على الناس أنهم أنانيون وذاتيون، وليس لنوازع الخير العام من دافع ذاتي، مبالغة كبيرة وظن بسوء طوية الإنسان، إذ إن معرفتنا التي نحن مطمئنون إلى وجودها أن الرغبة في التغيير والتجديد عند بعض الناس ليست بحاجة إلى إثبات، لا من ناحية واقع البشرية، ولا من واقع النصوص التي يعتمدها المجددون، لأن الفطرة والعقل والنص تضافرت على أهمية وجود هذه النزعات، ومنفعتها لا تخفى على عاقل.

غير أن هناك سؤالًا يظهر لمن يناقش موضوع التجديد والتبدل، هل هو مفيد أو مريح للناس؟ إن نزعة التقليد نزعة تعليم وفائدة، ونزعة استقرار وركود مفيدة، فالإنسان «ألوف» مألفة يحب استقرار علاقاته وما حوله، وكلما تقدمت به السن أوجد بينه وبين الأشياء بعيدة المدى ألفة، بسبب ضعف الفضول وضعف البداهة، وضعف النزعة التطلعية عنده، فيكثر حنينه لما يراه ألفة. يقول أبو الطيب: «خلقت ألوفًا لو رجعت إلى الصبا لفارقت شيبي موجع القلب باكيا»؛ ولدى الطفل تقليد ونزعة له أيضًا «وربما وجع قلب من التحول»، ولكن قلة بقائه في مرحلة عقلية، ونفسية واحدة، وسرعة تحوله يشعرنا بأنه لا يألف، ولا يأبه بالتغير، لا ليس الأمر كذلك، بل يألف ويحن ولكن بحسب الزمن المقضي لكل

1 قصدت الإشارة إلى نقد ما ساقه الوردي وبالغ في تصوير أنانية الإنسان، حتى جعل من حماية الآخرين والحمية لهم أنانية، فإن حميت غيرك فلأجل حماية نفسك؟ راجع الفصل الأخير من كتابه **لمحات اجتماعية** ...، سابق، ج 3.

مرحلة. ويجمع بين الرغبة في الجدة، وبين الحنين للماضي، وفي الطفل الصغير نرى نفوس الكبار.

طريقة التغلب على الرغبة في الركود بنشر القناعة بأهمية التجديد في الحياة والأفكار، فمن لا يجدد يموت، وأن سنة الحياة التقدم أو التأخر، وليس هناك بقاء ما كان على ما كان.

الخلاص إبداع واتباع

نحتاج لفهم ومعرفة أولًا للخروج من التبعية للسلفيتين، فكلتاهما نفعت أهلها أو أضرت بهم، كلتاهما تنفع وتضر، تغلق الفهم وتفتحه، وكلتاهما غير ممكن أن يعاد تصويرها، وتوزيعها على الجمهور، ومهنة التصوير والتصور والتوزيع المقلد يضر بالأمة، ولا ينفعها، وابتسار الماضي الإسلامي والغربي آفة في التفكير، وليس تجديدًا ولا تأصيلًا لمخرج جديد.

يجب أن نفصّل أجزاء الماضي بعضها عن بعض، المعلومات عن الأخلاق، المفاهيم المتعلقة بالروح عن المتعلقة بالجسد، عصر الانبثاق عن عصر الازدهار، التكامل المتأخر في الأمم ترف، وفي البدء تكامل وعلو المهم على غيره. وليس كل علو يسعد به الناس، كما أن ليس كل ضعف للأمم يجعل الناس أشقياء في أرواحهم وسلوكهم. نعم لديهم نقص، ولكن لديهم تعويض؛ الياباني الذي انهزم أمام الأميركان، والألماني الذي خسر قوته، عاشا هوانًا وتبعية وشقاء نفسيًّا وكرامة مكلومة، ولكنه تحسن في جوانبه المادية طعامًا ولباسًا ورفاهية. الروسي الذي انتصر في الحرب مع الألمان كان شقيًّا مقهورًا، تحت عبودية الحزب الشيوعي.

البريطاني الذي خسر في العصور الأخيرة قلت أهميته ومكانته، ولكنه ربما كان أسعد ماديًّا من سابقيه المستعمرين، كانوا أكثر شموخًا وتعاليًا وأكثر تعبًا، وهذا الوارث جاءته الرفاهية باردة. نعم حمته إمبراطورية جديدة، ولكن حظه من القوة والقدرة تراجع، ولكن الشخصية الصغيرة الأنانية كسبت أكثر. فهل الكرامة مرتبطة بالسلاح والقوة، أم بالسكينة والروح الهادئة؟ ولم نسأل السؤال المهم في المجتمع البشري: هل للروح الهادئة مكان؟ أم إنها فترات راحة يسيرة بين هجومين؟ أو توتر بين قوتين يجعل الهوامش تسعد بالنسيان، وبالتبعية لقطب ضد آخر، وإنما جاء أمنها من كونها جهاز صغير في جهاز أكبر منها، أو فرد ضعيف في جيش جرار، لا يرجى منه كبير عون، ولا يخاف منه كبير ضرر.

إن للأفكار قيمة خطرة في حياتنا، في سعادتنا وشقائنا، في اختيارنا أي مجتمعات البشر في الماضي أو المستقبل ننتمي لها، فهي توحي لنا بأننا انتصرنا أو انهزمنا، إن للهزيمة ثقافة ضخمة لا تقل عن ثقافة الانتصار، ثقافة تجعلك تتخلى عن هزيمتك وتنسبها لغيرك، ثقافة تجعلك تظن أن انتصار خصومك هو انتصارك، وانتصار قيمهم انتصار قيمك، إن للهزيمة ثقافة إقناع إنهم لم يهزموك ولا هزموا أجدادك، إنما هزموا ثقافة، وحزبًا، وأشخاصًا آخرين.

هزموا الذين تنطعوا في الدين، أو في القومية، هزموا الذين أعطوا أهمية للجغرافيا، أو للتاريخ، أو للدين، هزموا متطرفين فقط!! أما أنت فأنت المعتدل المصيب، أنت لم تنهزم ولن يحدث لك شيء من هذا، لأنك

تفهم، لأنك متطور، لأنك حكيم، لأنك تعرف القوى الدولية، وتعرف الإنسانية!

وهكذا يقنعك المنتصر بخطلٍ ما كنت فيه، وصواب ما أوصلك له، وهذا هو الانتصار الحقيقي، كما حدث ويحدث اليوم، كما نسمع عن جميع المنهزمين، فكل أفكارهم كانت خاطئة، وكل المنتصرين كانوا على الحق.

هناك أفكار من المهم أن تبني عليها مستقبلك، إن كنت تريد، أو تملك أن تريد، بل مستقبلك هو قطعة منها، وهناك أفكار يريدها لك غيرك، وهي قطعة أساس من مستقبلك معهم وتحت رايتهم. فصراع الأفكار صراع إرادات، صراع أهداف وقوى، لا شيء عبث، لا إنهم يفكرون أن يجعلوا من مستقبلك أن يكون عبثًا لمصلحتهم، ولكنك قد تفكر في عدم قيمة المستقبل الذاتي، لأن اللحظة الخاسرة توحي بثقافة الخسران الدائم؛ للأفكار وللعواطف وللبلدان وللمشاعر، الخاسر ليس بيده كثير يحتفظ به، بل روحه أحيانًا زهيدة وطموحاته صغيرة.

«للانتصار ألف أب، أما الهزيمة فيتيمة»، المنتصر يعطي لانتصاره ألف اسم، وألف سبب، كلها مهمة وعالية الشأن تنم عن فكر صائب، وعقل يقظ، ودين عظيم، وقيادة حكيمة، كل سمات المنتصرين في الجغرافيا واللباس والألوان واللغة من أسباب انتصارهم، أما المنهزمون فكل شيء فيهم أو منهم، فقد كان خطأ، الوجوه والبلدان والرسوم والشكول، والدين والتاريخ واللغة، بل حتى الموسيقى!!

لهذا كان لا بدّ من بعث شمولي يقظ، «روح وعقل وقلب» لا بدّ من بعث متجاهل لثقافة الخاسرين، مجرد من عقد القيود الفكرية للمثقفين

المترهلين، حرًّا من التقليد الحرفي الساذج، وقد يكون ديماغوجيّا في جماهيريته ربما، أو واعٍ في مرحلة وطبقة محددة، ليس بإمكانك أن تصنع من الجماهير فلاسفة، ولا من مثقفيك كلهم شجعانًا، ولا منكرين لذواتهم، ولكن ليكن الأناني والجبان مُحرجًا من موقف عام، وليكن للقيادة نور تعرف أن تسير، فيها الوعي والمغامرة، الشجاعة والكرم، القدرة على أن تسمع الحكمة وأن تفهمها، قد لا تكون موهوبة ولكن ثقافة الأقلية الناضجة تصنع المعجزات، وتفرد الجبان والمتردد يهدم أعظم الكيانات. ويضيع أعظم الفرص، ويهوي بأشرف الأمم.

التوجه نحو المستقبل

يحتاج الهاربون من فساد الزمان – حقًّا– إلى مساعدة، وإلى إصلاح، ولطف في التعامل، وإعادة تأهيل في المشاركة في بناء عالم يصلح للحياة الجميلة المريحة الأخف مشكلات، ولن تكون عديمة المشكلات أبدًا. ومن مظاهر الهروب والاستقالة من العصر ما يغشى كبار السن من المثقفين، تراهم يحقرون ثقافة معاصريهم، ويبحثون عن ثقافة الماضي التي كانت تلفت انتباههم في شبابهم، لا يريدون الكتاب الجديد، ولا المثقف الجديد عليهم، كتب السابقون، وفكروا، وبنوا، وأصلحوا، وغايتهم «ليت الجيل التالي كالسابق»!!

الإصلاح والفلاح وفعل الخير عمل مستقبلي على المستوى الفردي والجماعي. وبناء مستقبل فاعل طموح على المستوى الفردي، أو الجماعي للأمة هو الغاية، لو كانت غاية الدين فقط نجاة من النار لكان عمل

الرسول والصحابة أقل كمالًا من أولئك الذين يخرجون الناس من العمران، ومن الممارسة للحياة ويعزلونهم عن التأثير في الدير، وتحت الأشجار، وعلى ضفاف الأنهار في الهند! ولكنه عمل بأحسن ما وصل إليه زمانه في مكانه، أو ما علم من غيره لجعل الحياة أكثر تنظيمًا إداريًّا وعمليًّا، واستن أحسن ما وصلت إليه المدنية، وكان يحثُّ أصحابه على المستقبل، وليس باتجاه الماضي فقط.

إنه بمقدار تمكن معرفتك بالماضي تسير بك الرؤية في المستقبل، فتكون أكثر وضوحًا وامتدادًا كلما كانت حصيلتك المعرفية بالماضي أشمل، وبمقدار ما يقل نصيبك من معرفة الماضي تضعف قدرتك على استبصار المستقبل. ولكن هذه المعرفة بالماضي يجب أن تكون متجهة للأمام، لنرسم للقادمين -وأولهم نحن في بقية أيامنا- طريقًا أحسن مما ورثنا، وليورثوا أحسن مما وجدوا.

وهذا «المفهوم الغيريّ» للحياة الفردية، أي الفرد الذي يخدم الغير، ويسعى لأن يسعدهم، هذا دور فردي ناجح، ودور جماعي مؤثر، فمصلحة المجموع لا يجوز أن تتصادم مع المصلحة الفردية، لأن الفرد من المجموع، ولأن سعادة الفرد تنبع كثيرًا مما يقوله لنفسه، ويقنعها به من أنه قدم خيرًا للناس، وأنه لا يشقى بإسعاد غيره، ويخرج من أنانيته القاتلة حينما يشعر أن له عملًا ودورًا كبيرًا يؤديه للآخرين.

تعديل التوجه من الاتجاه للماضي إلى الاتجاه للمستقبل جهدٌ شاق، على من سخر عالمه باتجاه الماضي، ولكن هذا الجهد ينسجم مع الفطرة، وينسجم أكثر مع عصرنا هذا؛ إن هناك قرونًا للبشرية طويلة قضتها

في تقديس ماضيها، تاريخًا وفكرًا، وتمثلًا خياليًّا، ولم تكن تشعر بمشقة الحياة، ولا تصادمها مع الآخرين بالشدة التي نراها في لحظات التوجه للأمام. فالتوجه للماضي عمومًا طريقة سهلة آمنة إلى حدٍّ كبير. عندما نختار من الماضي: الركود، والهدوء، والعادات السهلة، والعبادات التي لا تكلفنا موقفًا عامًّا مؤثرًا في حياتنا وفي حياة الآخرين. عندما نختار قيام الليل، ونترك عمل التنافس على العالم المحيط، ونترك السير في الأرض، ونترك البحث والمعرفة الشاملة، ولكن هذا المسعى، وهذا الطريق سوف يشككنا في صحة الماضي، ويفقدنا حتى صلاة الليل.

عهد الرسالة واحد من عهود التوجه للأمام، إنه عصر الخلاص والقطيعة مع مطلق التحكم الذي يأتي من الماضي، إنه إعادة توجيه ونزع لسيادة الماضي على الإنسان، إنه جعل الإنسان يختار من الماضي، ويتجه نحو المستقبل المختار!!

الغرق في الماضي سلوة مرة، ونكد في لحظة أخرى، وشعار الغارقين في الماضي لم يترك الأول للآخر شيئًا، شعارهم أن الكتب، والأفكار الأروع تمت في الماضي، ولن تكتب مستقبلًا، وشعار المستقبلي أن الأفكار الأجمل، والكتب الأحسن لم تكتب بعد، أو ربما كتبت في غد، فهم يعاصرون أيامهم، ولا يهلكهم مرض المعاصرة عن اكتشاف الروائع في زمانهم، وبأيدي صغارهم.

ثقافة المتجهين للماضي إلحاق فكرة بأخرى، وفلسفة بأصل آخر، ومتعة مثقفهم الكبرى إثبات الارتباط بين قول وقول، ومدرسة ومدرسة، وهم مهرة في هذا؛ هذه المهارة المعيبة يمكنها أن تصبح فتحًا

مبينًا عندما تسير للزمن القادم. ويصبح الماضي تمرينًا على شق طريق للتوجه المستقبلي، ورسم معالم دروب جديدة له. الذي يحترم السلف الصالح حقًّا يفعل فعله، ولا يضيع الزمان في تقديسه، فالسلف الصالح ترك عملًا جديدًا جيّدًا نحمده به، وإن كانت لنا نية وعقل وعمل طيب فلنصنع للقادمين خيرًا ينتفعون به يتفوق على الماضي ويرفع المستقبل. ولنصبح سلفًا صالحًا للقادمين.

ولو لاحظت كيف تكتب، وتنتشر الثقافة المعاصرة في مجتمعاتنا لرأيت عجبًا، فالمتعلم السلفي يجتهد في تحقيق كتب السلف من العلماء، وتقديمها لنا في زماننا ونشكره على ذلك، وإنما ماذا صنعت أنت لنا؟ قد يمتدح محمود شاكر ذلك القامة الفكرية الصامدة على ثغر الثقافة الإسلامية، من ربَّى جيلًا شامخًا، معتزًا بدينه ولغته، وضد كل الأتباع إلى حد التطرف، ولك أن ترى في الصفحة الأخرى المتزلفين للغرب، ماذا فعلوا؟ أغرقونا بأشعار خارجة عن الأدب وضد العفة، حاقدة على التراث، وأغرقونا بروايات متغربة تافهة، لا لغة ولا بناء ولا محتوى، فقط يتبعون موضة الروايات الغربية الغارقة في الجنس، والكفر والإلحاد، تزلفًا لأولئك.

وهناك ظاهرة ملازمة للتطرف الذي نجده عند الطرفين، أنه بمقدار ما يشتد طرف في تسلفه للغرب أو تسلفه للتراث الإسلامي فإن ذلك ينجز حالة من القطبية والتشدد المقابل، فيتطاول كل طرف في تبعيته لإحدى السلفيات ويجبر مجتمعه للانسحاب إلى سلفيته، وهذا يغرق المجتمع بمقلدين متطرفين متنافرين عداوتهم واضحة واختلاف اتجاهاتهم متنافرة، ويصطلي حتى البيت الواحد بصراع أحزاب متشددة لكل جهة.

أذكر مرة مقابلة مع معين بسيسو الشاعر الفلسطيني أنه قال في بيتنا ثلاثة أشخاص يمثلون ثلاثة أحزاب: البعث والشيوعية وحزب التحرير الإسلامي. هذه الأسر الممزقة والمجتمع الأكثر تمزيقًا مجتمع هش يسوقه التطرف حيث شاء، ورخو سائل بيد المستعمر وقواه وأفكاره وسماسرته.

بين الاقتداء والتقليد

إن الاقتداء بالسلف الصالح يقتضي عدم تقليدهم، فلم يكن لهم صورة سابقة نسجوا حياتهم على منوالها، ونحن إن نعتمد تقليدهم نتعب ولن نصل، وليس ممكنًا ذلك، ولهذا لن يكون هذا العمل صحيحًا أن نفعله، وهذه من الأفكار المفيدة التي قال قريبًا منها غيرنا، والتي قد تفيدنا هنا.

وعلينا أن نفرق بين الاقتداء والتقليد، فالمقلد يبحث عن صورة في الماضي أو الحاضر يعتسف التشبه بها، أما المقتدي فأول أسس الاقتداء عدم التماثل، واليقين بضرورة الاختيار، ومعرفة نقاط الضعف والقوة في السالف يأخذ منه ويدع، والاقتداء مأمور به، والتقليد داء، ينم عن نقص، وعن ضعف، حتى وإن كان المقلد خيرًا، وحسنة التقليد تظهر فوائدها ومضارها في البليد، فهو يفعل خيرًا ويقلد صالحًا فيظهر خير المقَلد -بفتح القاف- ويسيء التشبه والتقليد فينجلي عيبه فاحشًا، حينما يقحم موقفًا وزمنًا وقضية لا في زمانها ولا مكانها ولا سلوكها.

تجلت قضية القدوة في سلوك الرسول صلى الله عليه وسلم مع الأنبياء، ففي صريح الآية: «فبهداهم اقتده»، وبصريح القرآن وردت اختلافات كثيرة بين الرسول وسابقيه، وبين هديه أحيانًا وهديهم، وبين محدودية

عملهم، والتضييق على بعض الأمم أحيانًا، ومقتضى اتساع هديه، وبين مقتضى ختم الرسالة ومرونة التشريع، لأن يبقى خالدًا. الاقتداء تعامل مع شخص أو حال قائم أو ماضٍ بوعي ونقد ثم أخذ أو ردّ، أما التقليد فهو تخيل أو استذكار ثم إعادة تنفيذ بلا مرحلة فحص ونقد.

الاقتداء اتساع في الأفق المعرفي، واستحضار لحاسة النقد، ومغامرة بالماضي والحاضر إلى السير في زمن قادم نتوقعه، نتهجاه، نسير في دروبه بسلاح ناقد يعني بنقده الاعتراف بكل ما يصلح من الماضي، وجعله أداة للمستقبل.

الاقتداء إبداع أصعب من التقليد، وقد نوفق وقد لا نستطيع فعله، ولكن الاقتداء يبقى هو السلوك الصحيح تجاه ما يحيط بنا دائمًا، وما نتعامل معه من شأن؛ لأن الإنسان لا يمكن أن يتكرر، ولا زمانه، ولا مكانه، ولا مجموع الظروف المحيطة به، ولهذا يصبح التقليد تشويهًا، والاقتداء هو السنة.

الملحق الأول
هاتوا كتاب الزور أقرئونا

قلت لصديق كتبي من محبي القراءة وجامعي طرائف المطبوعات: إنني أستمتع بقراءة الكتب التافهة أحيانًا، فلم تدخل العبارة عليه عقلًا ولا قلبًا، وأنكر عليَّ وأصر، فانسحبت من النقاش، ثم مرت أيام ولما شعرت أنه جاهز لقبول فكرتي عرضتها معضَّدة بقول رجل كبير المقدار عنده. ففرح بخبر العالم الجليل الذي كان يأنس بالتافه من الكتب. ثم ذكرت له مُلح ابن عباس، وأن الحق يستعان عليه بشيء من الباطل، فما هي إلا ليلة واحدة عبرت، فإذا هو يطرق الباب في ليلة خصر شديد، مسلمًا ومهديًا، وقال: مغفرة يا شيخي لهذه الهدية التافهة، ولكنك أصررت على أن القارئ المدمن يملح الحق ببعض الباطل، وقد يسمع مواعظ بشر والجنيد ثم يعرض لذكر البطّالين. فقلت له: إن من علماء الأمة الأجلاء المحدثين من كان يأنس بالكتب التافهة، كالقاسمي الذي كان يأنس بالأغاني لأبي الفرج صاحب مقاتل الطالبيين. كما كان المسلمون يأنسون بمواعظ أبي الفرج، وعبد الرحمن بن الجوزي، ثم تذكر بعض الأخبار التي تنصر ما

قيل، فقلت: أصبت قلب الحق فيما رويت، فلا أخلى الله منك مجالس الكتب والأنس. ثم قلّبت السفر الذي تأبطه، وقلت: هذا كتاب يقطر غلافه وقارًا ويتقد جلده احمرارًا، فما الخطب وكنت تعدنا بالهزل؟ وكيف يكون هذا في كتاب تطبعه دار المؤمنين، وعلى غلافه أسماء أقوام طالما تلطف لهم المخادع المتلطف، وخلط لهم التزلف بالتسلف. فأصاب منهم لطيبتهم وصحة نيتهم مدخلًا، ثم تولى إلى غيرهم لو وجد مغارات أو مدّخلًا. قال: عفوًا يا شيخ أبعدت أبعدت هون علينا السياق، فليلنا مع هذا الكتاب التافه طويل، وقد تصبح أحاديثنا عنه كألف ليلة وليلة، فها أنت تطلب الباطل فجئتك منه بأشنعه، وأردت التبطل والعبث فجئتك منه بأغربه، فلا يخدعنك مظهر الكتاب ولا جلده الأحمر الأنيق، ولا ما صرف فيه من المال، فلن تجد أتفه فكرة وأحقر مقصدًا منه! فقد حاول أن يمرر أبطل الباطل تحت شعار السنة والحديث، أن يتزلف بهذا التسلف. فما وافقت صاحبنا على دعواه، غير أني واثق من عقله، راجيًا ألا يكون تابعًا لهواه.

فقلت: يا أخانا وفقك الله وإيانا، هذا كتاب يقطر من غلافه الجد، ومن لونه الخروج حتى لكأنه لون ميدان معركة للخوارج مع المهلب. قال: صدقت يا شيخنا -وصاحبي يصر على تلقيبي بشيخه مع علمي أنه إنما يظن ظنًّا- ثم عقب فقال: هذا الزور المسطور أكبر ما كتبه جاهل مغرور، وأوهى ما تزلف به متزلف لمتسلف. قلت: حسبنا الله ونعم الوكيل. هات هات من الكاتب هلّ الله براجمه؟ قال اسم الكتاب: مدارك النظر في السياسة، بين التطبيقات الشرعية والانفعالات الحماسية، قلت: لا فُضّ فوه، سرق القسم الأول من العنوان فكاد أن يعرب، وأوهم أنه

يرتفع لسماوات العرب، ثم أدركته فجاجته وجهله فما استطاع أن ينسج على منوال مسلوبه فأعجم وجمجم منذ الغلاف، ثم قلت: قل بالله من الكاتب؟ قال: عبد المالك بن أحمد بن المبارك، ثم تابع حتى أكمل خمسة أسماء، كأسماء جمهورية القذافي الخمسة كاملة غير منقوصة. قلت لصاحبي دعنا نقف هنا ونستمتع بنكتة قالها صدام ساخرًا من القذافي فقد قدَّم صدام ضيفه قائلًا: يتفضل الآن للحديث الأخ العقيد معمر القذافي رئيس الجماهيرية العربية الليبية ثم أكمل لأنه نسي اسمين من الخمسة وهما الرابع والخامس، فقال صدام: «شنو شنو بعد يا أخ معمر؟!» وأكمل معمر: «الاشتراكية والعظمى»، وتخابث صدام ساخرًا وانفجر الزعماء العرب المتكلفون للوقار، فترى منهم من يلوي وجهه ليضحك أو ينكسه، ومن يتظاهر بالسعال يفرج عن ضحك مكظوم، وعمت موجة من الكحة الخبيثة التي تستر الضحك الساخر، وكيف يضحك الناس أمام الركن المهيب والقائد العقيد الملهم؟ فقد ألهم كبره وجهله؛ أطول اسم لدولة.

فكيف يمسك بنا الضحك وقد بدأنا قراءة «المدارك»، أو على وشك؟

آنستنا آنسك الله فلنا مع المتزلف بالتسلف عودة بعد أخرى نضحك منها، ونخرج عن وقار السلف حينًا، وقد منّ الله علينا بأكذوبة وتزلف ثقيل سماه مجترحه مدارك النظر في السياسة، فقال صاحبي: لقد كان أولى به حتى يحافظ على خداع العنوان، ورنة الجرس في السفسطان أن يقول: مدارك النظر السياسي ثم يغثنا بتلك الكلمات التافهات المتواليات حتى يوصل القارئ مثقلًا متعبًا مغثوثًا «للحماسي». ويا لها من مسيرة ثقيلة أثقل علينا من جار الأعمش في الصلاة، أو جار مستفتيه، وقد قال إن

سلمت من صلاتك وعلى شمالك ثقيل فإنه يكفيك أن تسلم على اليمين واحدة فقط. فكان يكفي المدارك، ولكن خشي أن يشتبه بما هو أقل خطرًا من الكتب التي ترجمت لأصحاب مالك يرحمه الله، وعفوًا لذكره في هذا السياق.

ثم قلت فهل لك في فتوى ابن شاكر في تجرع نكد السطور؟ مما يكتبه كل تافه مغرور، وأنى لنا بمثل تافه شاكر ليتنا نحاور مثل تافهه، ولكن «تعالوا فانظروا بمن أُبتلينا»، فلعله توهم من اسمه أنه مجموع عبد الملك بن مروان، وأحمد بن حنبل، وابن المبارك، ويتوهم أن الجميع اجتمعوا في مسلاخه. وسيكتب للعالمين مدارك النظر!!!

ومن عجيب هذا المتفيهق المتفيقه أنه قدم لنفسه بأعجب ما يمكن أن يكتبه متنفج متشبع بما لم يعط.

قلت: هات من عجائب صاحبك. قال: أعوذ بالله أن يكون لي صاحبًا. ثم عقب: فقال: يا شيخ هذا كتاب الجُبن، بل كتاب الجهل، قلت فلنسمه: «كتاب الجيم» مع الاعتذار الشديد لكتاب «العين». فقرأنا في بدء كتاب الجهل بدايته المتعالمة المتكبرة الثقيلة بقوله: «تأصيلًا لقاعدة: الفتوى في النوازل السياسية قاصرة على المجتهد»، ص 4. ثم أردف يهرف بما لا يعرف من نقل لكلمات كبار، بعضها لو مدح بها المتنبي نفسه لما قبلت منه. وبعضها لو لكانت في مكانها لكانت حقًّا وما أندرها. ولكنه جعل الحق خادمًا للباطل، وسبيلًا للكذب والتزوير، فبئس ما صنع. ثم ينسى ما قال عن اجتهاده، ونسي للأسف أن يخبرنا هل هو من نوع المجتهد المطلق، أم مجتهد المذهب، فبقينا على الوهم حائرين، وهل مجتهدنا أقرب إلى مدرسة

الرأي أم الأثر؟ ثم غلب عليَّ الظن أنه من أهل الأثر، برأهم الله منه ومن زعمه. ولعله أوحى بتواضع شديد إلى أنه شيخ الدنيا وصاحب علمها. ثم يلف ويدور في الساقية ليقول: «وقد ذكرت هذا لا ليمدحني القارئ»، ص 19. أبدًا أبدًا حاشاك حاشاك، لست المجتهد، ولا المفتي الفرد، فأنت متواضع، جدًّا، ولا تسوق من الفكرة وضيعها، ولا من القول موضوعه وتافهه. لا بل الأدنى من ذلك إن كان في الدنيا أدنى!! حاشاك من التواضع الكاذب، والتمظهر السمج. ثم نماشيه ولن نمشي معه، ويل أمه من جاهل جبان رعديد، يسترضي كل جاسوس أثيم، ويوحدهم بالطاعة والخنوع، ثم يسمي نفسه أثريًّا سلفيًّا غير خلفي، وحاشاه مرة بعد مرة أن يكون ممن سلك طريق السلف ولم يعرف طريق «الخلف»، بفتح اللام لا تسكينها فلا تهم هنا. رحم الله السلف وأهل الأثر، ما لهؤلاء القوم يذكرون السلف بألسنتهم، ويحاربونهم بأعمالهم.

وإن كنت قد سمعت أن بعض الأعلام المجتهدين يُتعبون القارئ، فهذا أيضًا أتعبنا جدًّا بتنفجه وضحكنا على تزلفه بتسلفه، وخشينا أن يخرج علينا الجيران الأميركان ويستدعوا الشرطة لإسكات الضحك فصاحبي جَهْوَريّ الصوت، والكِتابُ يضحك الحزين، ويدفن العقل حيًّا. وتواعدنا على إن ألم بنا ضيق أن نفرجه بالضحك على المتزلف بالتسلف، وقال ضيفي وهو يودعني مرت ليلة وبقي ألف ليلة فقط حتى نكمل الكتاب العظيم للشيخ المتواضع المجتهد في النوازل الذي «لا يحب أن يمدحه قارئ» قلت ولن يحدث إلا مثل مدحنا هذا.

وجاءت ليلة أخرى وما إن رأيت صاحبي من بعيد حتى تضاحكنا، وأخرجنا المتسلف عبد الملك من وقارنا للضحك وقلنا:

«هاتوا كتاب الزور أقرئونا»

وكتبه لكم من لا يتزلف بالتسلف

الملحق الثاني
كلمة مؤتمر إسطنبول[1]

1

تصف المصطلحات والمفاهيم التي انتشرت في مجتمعاتنا مفاهيم فكرية ومظاهر حركية تستحق اهتمامنا لما نريده من بعدها؛ إذ لا نهتم كثيرًا هنا بمسألة تفصيل الحالة السلفية في القرون القديمة، بل يهمنا الحالة الحاضرة والمستقبلية، وهذا الذي أرجو أن تتجه إليه الأبحاث والمناقشات. لأننا نود من أبحاثنا ونقاشاتنا الإصلاح، والاهتمام بالمستقبل، أكثر من المدارسة المعرفية المجردة فقط عن الماضي المنقطع عن الحاضر، أو يتواصل معه بخيط تاريخي سيبقى مهما بالغنا في توطيده ضعيفًا. لأن مجال البحث الأكاديمي المنقطع عن الحاضر؛ مجال قد يكون مفيدًا ومهمًّا، ولكن لعله لا يؤثر في مستقبل هذه الأمة وما تعانيه في زماننا من تحولات وتشكلات

1 ألقيت الكلمة في مؤتمر «السلفية: تحولاتها ومستقبلها»، والذي عقده منتدى العلاقات العربية والدولية في إسطنبول عام 2018.

عديدة تستذكر الماضي قولًا وتفارقه عملًا، ولو حاولت استعادة ذكرياته، فهي بعيدة زمنًا وفكرًا وممارسة عنه والماضي لا يعود إلا تخيلًا مبتورًا.

2

كانت السلفية في العصر الحديث -وهذا ما يهمنا الآن لأننا لا نبحث القضية بوصفها مسألة تاريخية- تعني مدرسة الإحياء الإسلامي. ففي نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، كان يطلق عليها السلفية بمعنى التوجه الإسلامي عمومًا بما في ذلك المدرسة الإصلاحية، مدرسة جمال الدين الأفغاني، ومحمد عبده، ورشيد رضا، وهذا وصف الثعالبي وتعريف شكيب أرسلان، ومعظم تصنيف الذين أرَّخوا لتلك المرحلة، فكانوا يسمونها مدرسة السلفية، والتي أصبحت خارج دائرة السلفية في الاصطلاح المعاصر. إذ كان يقصد بها حالة الإحياء الإسلامي في مواجهة المستعمرين، أو في مواجهة المندمجين في الحالة الاستعمارية، فتطورت هذه التسمية من معناها التاريخي في عصر الاستعمار، ومن زمانها إلى مصطلح مختلف، ولهذا فإن التسميات لها تاريخ، ولا يصح لمن يحاول فهم هذه الظواهر أن يكتفي بالمصطلحات، يكررها، ويتوقع أن معناها هو نفس المعنى، ويبقى دائرًا مع معنى ثابت عبر التاريخ.

كانت السلفية تعني مواجهة المستعمرين، ومن ناصرهم، من: الأفكار، والمؤسسات، والقيادات، والحركات التي كانت مندمجة في مناصرة الاستعمار وتأييده، وكانت تعني مواجهة الأفكار الاستعمارية وليس الاستعمار بحد ذاته فقط، وكانت تعني مواجهة الإلحاد والملحدين

«الدهرية والدهريين» في ذلك الوقت، ثم صعد من بعدها المد القومي، فأصبح التوجه الإسلامي مواجهًا للمد القومي، ثم جاء اليسار وزاد تخصيص المصطلح الإسلامي بالمدارس التي واجهت المد اليساري.

وكانت السلفية – أو الإصلاحية– آنذاك لا تبتعد عن الحركة الوهابية، بل تعتبر الوهابية سلفًا لها، ثم تراجعت المدرسة الإصلاحية لغلبة القوميين واليساريين في الخمسينيات، وما تلاها وطاردت الإسلاميين، والإسلام من أرضه وأمته، بكل ما استطاعت، خاصة في الشام، والعراق، ومصر. وشيئًا فشيئًا استعادت الوهابية قوتها وصوتها الذي كان ضعيفًا داخل حركة الإحياء الإسلامي العام، فأصبحت تعني السلفية ثم أصبح التجمع حول هذا المصطلح أكثر من التعريفات الأخرى.

استعادت السلفية وخاصة الوهابية دورها لأسباب، منها أنها كانت سلاحًا لحكومات غنية هددها الخصوم، فجندتها ضد اليسار من شيوعيين وقوميين وبعثيين خاصة. وقد واتت ظروف كثيرة عودة الوهابية، ومنها غنى الحكومات التي جندت السلفية، وبسبب رسوخ الإسلام في البيئة العربية، وفي الجزيرة العربية خصوصًا، لم تتعرض لهجوم يساري، ولا قومي كاسح. ولا رسخت فيها ثقافة المستعمرين، فكان التسلف سهلًا قريبًا، ثم وفقت السلفية المعاصرة بشقيها الإحيائي، والوهابي؛ بقادة فكر، وعلماء مؤثرين، وخطباء وكتاب من كل مكان، ولأنه برز في السلفية علماء وإحيائيون أقوياء علميًّا وناشطون عمليًّا، من أمثال محمد بن إبراهيم، وابن باز، والقرضاوي، وساعدت كتبٌ ميسرة معاصرة في التأثير مثل كتب: سيد سابق، وسيد قطب، والألباني، والغزالي، وسعيد

حوى، ومؤثرين كثر غيرهم في الإحياء العام بجانبيه، وكذا الكتيبات ووسائل الإعلام الأخرى من المجلات والتسجيلات والإذاعة، والتلفاز في صناعة مناخ إسلامي عام، ولَمَّا انكسر اليساريون والقوميون عادت لحظة إسلامية شاملة للساحات العامة والأفكار واللغة والمصطلحات واللباس، وعودة هوية إسلامية صارخة في كل مجالات المجتمع.

ثم انقسمت السلفية إلى مدارس مختلفة، وأصبح الشعار الإسلامي العام منصرفًا إلى حركات متعددة، فلم يعد هناك مهرب من التسمية والتقسيم، وذهب اسم المدرسة السلفية إلى جماعة واسعة من أهل الحديث والمهتمين بعقيدة أهل الحديث وما كان يعني السنة والجماعة أصبح يطلق على مدرسة ابن تيمية وابن عبد الوهاب، غير أن هذه السلفية المعروفة بتمسكها بالخطاب، والمشكلات القديمة، وبالموضوعات التي كانت تطرق قديمًا أصبحت مدارس متناحرة، والسبب الأول في تمزق السلفية هي القضايا السياسية، فقد كان يجمعها من قبل رغم تنافرها جمع السياسة لها لتكون من جندها ضد الخصوم، فلما ضعف أو سقط الخصوم، وتخلت حكومات عن حاجاتها لجمع السلفيين؛ تمزقوا، وظهرت خلافاتهم الفكرية الكامنة؛ الحقيقية، والشخصية.

3

أصبح تعريف السلفية في حاضرنا بمعنى: «العودة للماضي: مدارسًا، وأفكارًا، وسلوكًا»، و«العودة إلى التوحيد»، و«التميز عن الآخرين»، و«العودة إلى الكتاب والسنة»، و«الاحتجاج على الحاضر بالماضي»

و«العودة إلى زمن العزة، بدلًا من زمن الذلة المعاصرة» و«الاستقلال باللغة والشكل والهدف» و«إعادة الدولة الإسلامية»، و«العبودية لنظام الحكم القائم»، أي حكم، وإعطاء مشروعية له، إما أنه إسلامي مكتمل الأركان، أو غير إسلامي فيمكن تحته استعادة أوصاف من الماضي مثل «شرع من قبلنا» و«قبول يوسف النبي العمل في دولة كافرة»، أو «كفر دون كفر»، أو «أمة دعوة، لا دار حرب، ولا دار إسلام»، وأصبحت كل المصطلحات القديمة تخدم تفسيرًا غاليًا في فهمه، متطرفًا في نهجه من يمين، أو شمال من جبرية أو خارجية، وقد عاشت السلفية دائمًا عبر تاريخها بين هذين الجناحين.

4

هناك سلفية أخرى أكثر حضورًا وتأثيرًا وتسليحًا وإدارة ومهارة وهي السلفية الغربية، باختلاف مسمياتها، مسيحية أو علمانية، أو حداثة. وهي من حيث البعد التاريخي والثقافي سلفية أبعد مكانًا، وأكثر اختلافًا، غير أن بعض التعامل مع هذه السلفية في عالمنا شبيه بالتعامل مع ثقافة وأفكار وسلوك سلفنا، فهي تستدعى من بعيد مكانًا، وبعيدة زمنًا في كثير من الأحيان، وتعالج السلفية الغربية بنفس طرائق التعامل مع سلف الإسلام والمسلمين، فهناك اندماج وإعجاب، وقسر لحاضر بلادنا أن تسلك في حاضرها نفس السلوك والقسر، والولاء والبراء، والوفاء حتى بالأشكال ومختلف الأحوال، وربما الألفاظ، والتشبه ومحاولة الانحلال داخلها بكل وجه ممكن.

فنحن أمام حركتين سلفيتين: أحيانًا نجد هذا التسلف متعصبًا إما لسلف الغرب أو لسلف المسلمين. ولهذا قد نجد أن هاتين السلفيتين لا تنقذان مستقبلنا ولا ترسمان طريقًا للخلاص مما نعانيه. فهما لا تخضعان أفكارهما لعقل ولا لوعي، بل لصور قادمة من الماضي البعيد فقط. هاتان السلفيتان تميزتا في كثير من جوانبهما بأنهما تستخدمان التسلف أحيانًا للتزلف، إما التزلف لسلطات الغرب أو التزلف لسلطات محلية، تزعم أو تدعي وفاءً لسلفية محلية قديمة، أو سلف غربي بعيد. فإذا جادلك سلفي (متزلف أو متسلف للغرب) فهو يناقشك، ويتحدث معك، ويفكر من خلال سلفيته الغربية. فأصبحنا في تصادم ما بين السلفيتين. هاتان السلفيتان غريبتان على الواقع، تريدان الاعتزاز بماضٍ معين، سواء كان ماضينا، أو كان ماضٍ عند غيرنا، فتميزتا باغتراب عن الواقع، والحياة اليومية، والحاجة لفكر يعالج مشكلاتنا، ويبني مستقبلنا، ومشكلاتنا غياب عن الحاضر في ماضٍ لغيرنا. وهي تعتز بقوى في الماضي، وتنتهك حياتنا ومستقبلنا. فهي مندمجة في تاريخ زماني مختلف ومندمجة في حالة فكرية مختلفة عن حالة الحاضر والمستقبل.

نعم إنه قد لا يحب المتسلف (المتزلف لماضي الغرب) أن يسمي نفسه سلفيًّا. ولكن الحقيقة أنها عقلية سلفية، فهو عندما يناقشك في أمر أو يعالج فكرة فإنك ستجد سلفه صارخًا به وله في كل كلمة وفكرة وتجربة وسيعرض جذور سلفه العلماني أو الليبرالي أو اليوناني أو في عصر الثورة الفرنسية أو البلشفية، فهو في الحقيقة يعيش حالة سلفية مغتربة أيضًا كما أن السلفي المندمج في الماضي البعيد هو مغترب عن زماننا وحالته الفكرية تعيش وتفكر من خلال عصور أخرى.

5

لا يعني هذا الأمر أنهما مساوئ وأخطاء فقط، فلهما محاسن أيضًا، وهذا الجانب الحسن في السلفيتين يجب أن نراعيه؛ للانتقال منه إلى ما يهمنا في زماننا. فهناك أولًا مسألة العدل مع السلفيتين، وهي ضرورية جدًّا، لنبين إيجابيات وسلبيات هذه الأفكار وهذه المواقف، لأن الانحياز المضاد هو ظلم للناس، وهو ظلم للعقل وللواقع، فالبحث في محاسن الحركتين ينقلنا إلى إصلاح حالنا. أما إذا وقفنا عند التجريم، والقمع، والإساءة للماضي أيًّا كان الماضي فإنه قد لا ينفعنا في الذهاب إلى المرحلة المستقبلية.

من محاسن التسلف الثقة بمرحلة معينة، سواء كانت هذه الثقة بالحالة الإسلامية القديمة، أو الثقة بمرحلة الحداثة الغربية، وهذه الحالة تعطي نوعًا من الثقة للمتحاورين وللمفكرين وللمشاركين في وعي هذه المرحلة، فهي تعطي نوعًا من الشعور بالثقة، ومع ذلك فهي كما أنها تثق في الماضي (الغربي أو الإسلامي)؛ فهي بالمقابل تعيب وتغيب العالم والنفس عن الحاضر، فهي نوع من الهروب إلى منطقة آمنة موثوقة محبوبة، وهي بالمقابل لا تحرص أو تحاول أن تحل المشكلة التي تعانيها في لحظتها. التسلف بمعنى التغرب، هو غياب عن قضايانا تمامًا، وعن حاضرنا، وإغراق في ماضي غيرنا.

6

تغيب عند المتسلف المسلم كثير من مقاصد الشريعة، فيتحدث عن إعزاز صورة سابقة معينة في ذهنه، وينسى طريقة المعاصرة، فمثلًا أبرز ما ظهر في قضية داعش أو بعض الحركات الجهادية أنها تعامل الحاضر وكأنها تستعيد صوره في الماضي؛ تستعيده في اللباس والكلام والشعارات والمقاطعة، وتستعيده وكأن الأمير في زاوية من قرى الشام أو العراق، وكأنه هارون الرشيد، وكأن الآخرين «كلب الروم». فهي تتحدث عن مرحلة خيالية بعيدة عن الحالة التي تعيشها مرحلة الاستضعاف، لأنها تفكر من خلال صورة تاريخية كبيرة.

أيضًا المستقوي في عالمنا بالغرب، يتحدث عن مصطلحات غير موجودة في مجتمعه، يتكلم عن مجتمع مسحوق، عن برجوازية قد لا تكون موجودة، يتكلم عن بنى رأسمالية غير موجودة في مجتمعه. فهو يستقدم صورة خيالية من الغرب أو من التاريخ الإسلامي بعيدة جدًّا. المؤسسات عنده تصور وخيال لكنه لا يعيش في المجتمع بحكم عدم وجود هذه المؤسسات. أصبحت الديمقراطية عند المتسلفين المتغربين ديمقراطية بيروقراطية وهيمنة مؤسسات تعني الشخص، ولا تعني حالة اجتماعية.

7

من مضار هذا التسلف عدم الثقة بحاضر الشخص وأمته، وإمكانياتها الشخصية، ولا بعلمائها، لا يثق بإمكانية إبداع الحلول. ولذلك دائمًا يستند إلى حالة غير موجودة، يستدعي قوتها وتأثيرها لكنه غائب إلى حد كبير.

كنت في نقاش مع عالم متسلف، فقلت كلامًا لم أسنده لأحد من سلفنا، فقال: ومن سبقك بقول هذا؟ قلت: لا أدري، إنما هذه قناعتي، وقد تكون مكرورة وقد تكون على ثقافتنا جديدة، ثم بحثت الأمر معه وتبين أنه ملتزم بألا يعتبر أي قول لا سلف لك فيه بحسب عبارة أحد السلف.

وبهذا تعرف مدى هيمنة السلف على المعاصرين، وكأن الماضي وثقافته قفلًا مقدسًا لا يجوز العيش إلا فيه وفي أقوال أهل الأزمنة الأولى، فلا يجوز قول فكرة ولا موقف ولا رأي لا سابق لك فيه! وهذا يذكرني بمقولة لأحد نقاد التفكير الشيوعي المتأخر، إذ قال أحدهم: قل ما شئت، ولكن المهم أن تذكر مبررًا لمقولتك من كلام ماركس أو لينين، فأنت تكتب رأيك ثم تلصقه بأحد سلفهم ليكون مقبولًا ولا تكون خارجًا على السلفية العلمية (الشيوعية أو الماركسية العلمية).

كل هذه أباطيل التمذهب الواقي من المعرفة، ومن الممارسة النافعة للنقاش العلمي والمعرفي المنقذ، وكما أنهت السلفية الماركسية تجربتها في الوقوع في سلفية الغرب الرأسمالي، فإن هذه السلفيات الأخرى تكرر نفس المصير لتقارب العقل المتسلف في العالم، وتحريمه للتفكير من داخله

فيكسر من خارجه إما بسلفية أخرى أو بتجديد للحياة كبير وهذا نادر وصعب، ويحتاج تجديدًا عظيمًا واسعًا في المفاهيم والتجارب وشجاعة في العقول لتقتحم أسوار السلفيات التي طالما أحبها الإنسان في غالب تاريخه. ثم أيضًا هي نوع من الاغتراب المعرفي، تجد أحدنا يعيش في الحاضر وهو يدرك كثيرًا من تفصيلات الزمن الماضي، لكنه يغيب عن إشكالات عصره، حتى لغة الحديث والنقاش والجدل هي غائبة عنه؛ لأنه لا يعاصر هذه الحالة، كذا أيضًا المتسلف الغربي يستحضر كثيرًا من الحوادث، ومن الشخصيات، ومن الأفكار ويعيشها مغتربًا عن مجتمعه، لا يعرف الكتاب ولا المؤلفين ولا الحركات السياسية التي تعيش في مجتمعه، لكنه موسوعي في سلفيته. وهذا أيضًا دليل غيابه عن حاضره. وهذا الاغتراب المعرفي يصبح أحيانًا سببًا للقطيعة أو العزلة عن المشاركة.

8

للسلفي حالة أو حادثة أو مشهد أو قصة معينة، ينتقيها عبر قرون طويلة ويسقط مئات السنين، ويحتج بحالة منفردة. هو كذلك في الحالة الغربية لما يتعامل مع العلماني الغربي، يختار النموذج الفرنسي المتطرف في موقفه من الدين مثلًا، أو يختار فولتير مثلًا شخصية ساخرة من الدين، لكنه لا ينظر إلى هذا المجتمع كسلفية يمكن أن يتسع في التعامل معها، فتسلفه جزئي في الغالب، كما هو تسلف الآخر في نظرته إلى تاريخه، فوات الحاضر على المتسلفين جميعًا، هذه ظاهرة قوية للأسف، لا تجده يستطيع أن يكون مرنًا في التعامل مع؛ المجتمع، الأحزاب، الحركات، الدول، لأنه لم يعش هذا العالم، ويصعب عليه اقتحامه ولا تساعده ثقافته في هذا.

9

المتسلف يعيب على المتمذهبين تمذهبهم، ولكنه يقدس تمذهبه الشخصي، فهو يعيب هذا بأنه مذهب، أو هذا حزب، هذا توجه منغلق، لكنه ينسى في الوقت نفسه حالته التي يعيشها هو، فهو لا يرى نفسه في هذا السياق فهو يجمع كل شيء حوله بحيث يغلق على نفسه السياق المعرفي العملي.

10

السلفيتان تستقويان بالماضي، وسواءً كان ماضي الاستعمار الغربي، أو كان ماضينا الإسلامي، لكنهما لا تحاولان أن تحلَّا مشكلات الحالة المعاصرة بأدوات معاصرة، أو لا تستطيعان صنع فكرتهما في التعامل مع السلفين، فهما تعانيان غربة وفرارًا من الحياة لصالح سلفين، ومجتمعين غريبين، وتجربتين بعيدتين.

كنت قد كتبت عن فتوح المسلمين في الماضي، فرد عليّ بعضهم قائلًا: هذا زمان بعيد. وأنكر عليّ سلفيونا المستغربون من محتقري التاريخ، ولو أني كتبت عن فتوح نابليون لفرحوا بتكرار هذه البطولات على الأسماع. وكتبت مرة عن تاريخ هوليوود وإنشاء اليهود لها، فرد عليّ متسلف مستغرب أيضًا بقوله إن له سنوات هناك، ولم يسمع الخبر هذا، وكأن الأميركان سيصطفون له، ويشرحون هذا التاريخ، ورددت عليه بأني

أنقل عن كاتب أميركي يؤرخ لهوليوود. أما المتسلف لسلفنا فيغضب من سلفية المستغربين. ساعدت مرةً في نشر مذكرات قائد أميركي، وفيها شرح طويل لطرق التعليم والتجنيد في أميركا: «جندي أميركي»، فكتب متسلف يقول لي لا يجوز نشر تعليم ولا بطولات ولا تاريخ هؤلاء فهو يمجدهم ضد أمتنا وبلادنا.

ولهذا فكلا السلفيين موتور من سلف الآخر، وأنتج هذا تمزيقًا للتسلف بين جهتين، وغربة كبيرة عن القدرة عن النظر بواقعية تجاه ثقافتنا وثقافة الآخرين، والأولى ليس أن نتسلف لأي سلف، بل ننظر لما يجب أن يكون عليه العقل النابه المتطلع الجديد المتجدد، الذي يواجه بنفسه تحياته لا يضع أمام عينيه منظار السلف الغربي ولا الشرقي، جيل وفكر يخترق الحواجز السلفية ليصنع حياته بعيدًا عن الرؤيتين.

إني لا أبرئ نفسي من عقدة السلفيتين، ولا من آثار السلفيتين، ولا من صعوبة إيجاد المخرج بين السلفيتين إلى المستقبل، وإنما نحاول الخروج من هذه السلفيات نحو بناء فكرٍ وحال وواقع مناسب لنا، وليس بالناشد المشابهة أو المخالفة ضرورةً، لأن المشابهة والمخالفة من أسلحة هذه السلفيات الصارمة المسلولة على الرقاب.

11

تتحول مع الزمن هذه السياقات المتسلفة المنغلقة إلى مذاهب وأديان تبدأ صغيرة ثم تنتشر بعد ذلك، أقسام في التسلف الغربي؛ بعثية، قومية، اشتراكية، شيوعية، ثم تنقسم إلى أديان حادة متقاتلة فيما بينها، وهذا أيضًا

حدث في التسلف الإسلامي، يلحُ على تفريق الأمة قدر المستطاع من خلال التميز، وما يرى أنه تميزًا معرفيًّا.

فهو ينغلق على مدرسة سلفية، أو صوفية، أو أشعرية، أو اعتزالية، ويرى تسلفه وهجرته إلى الماضي انتصارًا على التسلف المضاد لسلفية الغرب بأقسامها، أو سلفيات المسلمين بأقسامها، وكلا التسلفين غربة وضعف، وتخل عن بناء فكرة للحاضر؛ تصنع رؤية للماضي بأنواعه.

12

إنني أدعو إلى موقف يشبه موقف الأديان في نشأتها من أفكار قومها، ومن موقف المشركين وأتباع الديانات في مواجهة الإسلام بـ:»إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مهتدون» [الزخرف، 22]، وإلى الاقتداء بسنة الأنبياء في التعامل مع السلفيات وبدرجات مختلفة من الأخذ والعطاء، ولكن البعد بوعي مفيد جدًّا، كما أن الاقتداء الناقد انتقال مهم ومفيد جدًّا. ولا يمكن ذلك إلا بإجراء شجاع في التعامل مع المعلومات ومع الأفكار السالفة قبلنا أيًّا كانت. ويقتضي أمر التجديد والانتقال إلى فصل واضح ما بين الدين (أي النص المنزل)، وما بين التدين، الممارسة أو التجربة التاريخية القديمة والمتأخرة.

13

العقل السلفي عقل جدلي غالبًا، يحاول أن يستقوي بالمذهبيات القديمة على المذهبيات المعاصرة، ويغيب عن الحالة المعاصرة. كانت هناك أبحاث

نشرت أخيرًا تقول إن الإنسان في الغالب لا ينساق إلى المعلومات، ولا يأخذ بها، فهو يحب أن يأخذ من المعلومات المعاصرة له ما يؤيد أفكاره، ومن الماضي ما يؤيد أفكاره، حتى لو واجهته حقيقة علمية صريحة؛ فهو يحاول أن يتخلص منها، فتراه دائمًا يحاول أن يجادل ما لم يعهد، أكثر من الاستجابة لما يشاهد من حقيقة.

مرجعية هذا التسلف لا تطمئن الشخص للتعامل، فيضطر إلى تجريم الجميع، لأنه لا يعمل في الحاضر. ومن هذا نَصِلُ إلى أهمية التسامح، سواء كان بين المدارس الإسلامية، أو في نظرتنا إلى العالم، ننظر إلى هذه الإيجابيات، ومكاسب الإنسان عبر العصور كسبًا لنا، لا كسبًا لقضية تراثية في الماضي، حالةً تجعل جميع السلفيات سواء كانت إسلامية أو غربية نوعًا من الرصيد للمشاركة في المستقبل الذي نفكر في وعيه وصنعه، وليس لنصر حركة في الماضي، أو فرقة في الحاضر على الماضي.

14

هناك فرق بين أن تكون مهتمًّا بالسلفية من داخلها أو من خارجها. إن كنت متسلفًا غربيًّا من داخل مدرسة معينة فإنك لا تستطيع أن ترى المدارس الأخرى، وإن كنت متسلفًا في الحالة الإسلامية من خلال مدرسة، فإنك في الغالب لن ترى المدارس الأخرى، ولهذا يكون سياقك الثقافي مغلقًا كما في نظرة توماس كون للثورات العلمية وانغلاقها على أهلها، إذ تعود الإنسان عالمًا أو غيره أن يعيش في داخل سياق معرفي مغلق، هذا السياق لا يسمح له بالرؤية إلا متى عرف وشاهد كثرة

الخروج والكسور في مدرسته، ونشأة بناء آخر، وهناك سيحاول أن ينظر إلى المدارس الأخرى من خارجها، حتى يجد نفسه فيها.

إن رسالة الإسلام في الأساس هي التخلي عن الآصار والأغلال، ووضعها عن الأكتاف المرهقة بها، لكن السلفيات تستدعي الآصار والأغلال قدر المستطاع، لأنها ترى فيها رصيدًا تاريخيًّا يجب أن نلتزم به وأن نحبه ونحترمه.

قيمة وأثر المثقف المسلم المعاصر في الاستفادة من كل هذه الأشياء بروح منفتحة، وبحث عن الحق في كل هذه المدارس، بحثٌ عن الحق الذي ينقذ اللحظة، لا الماضي، أو يروج لأشخاص أو مدارس.

15

من آثار العقلية السلفية إلغاء الموجودين المعاصرين سواء كانوا علماء، أو حركات لصالح الماضين، ويقابل ذلك تقديس الماضي، سواء كان غربيًّا أو إسلاميًّا، لو عاش في زمن من أقدر العلماء وأكثرهم نفوذًا وتأثيرًا فهو لا يعتبره شيئًا لأنه ليس سلفيًّا، لم يعش في الماضي، لكن لو كان عاش في الماضي لكان لهذا الموقف تلك الأهمية.

ومن هنا فإن السلفيتين لا تنقذان من هذه الحالة، ولا تستطيعان تطوير المستقبل بحكم اندماجهما في الماضي، أو احتجاجهما ولجوئهما إليه، وتجريم المستقبل إن خالف الماضي وتصوراته ومذاهبه وقضاياه. ومباشرة نقد هذه الحركات بوضوح بأنها ماضوية إلى حدٍ كبير يجعلنا نستطيع أن نصل إلى حالتنا التي نحتاجها في عصرنا.

تجد المتسلف الغربي لا يشعر بالتطورات الحادثة في الغرب نفسه، يرى أنها حضارة علمانية غربية بينما هم يقولون: نحن حضارة مسيحية يهودية، هذه الشعارات الأخيرة والحكام الأخيرون مضادون للهجرة والثقافات الأخرى والأديان الأخرى، يرون خطر العالم الإسلامي عليهم، هو ما زال يعيش مرحلة ما قبل 200 و300 سنة. وقد أقر الرئيس الأمريكي السابق ترامب قانونًا يقضي بعدم السماح بدخول سكان سبع دول إسلامية إلى الولايات المتحدة، فأين العلمانية؟

ونحن نرى المتسلف الغربي عندنا لا يرى هذه الحالة التي تغير فيها الآخرون، وكتاباتها عن إعجاب بسلفهم، كما أن المتسلف الإسلامي لا يرى الحالة التي وصل إليها المجتمع الذي يعيش فيه من أي عيوب كانت.

فلو أن هناك دولة يهودية عنصرية، فهو يقف على أنها دولة علمانية، أو أنها غازية، أو أنها استعمارية، بينما حقيقة حالها أنها تؤمن بسياق ديني حديث جدًّا، وتغيَّر ويتغير باستمرار، لأنه هو لم يتغير فلا يظن أن العالم الآخر يتغير.

16

منذ سنوات ليست بعيدة قدمت محاضرة في مجلس الدكتور راشد المبارك في الرياض، وفي نهايتها تقدم إليّ أحد الحضور وهو من المتسلفين الآخرين، فذكر لي أن روسيا في أيام الدولة الشيوعية قدمت للإنسان خدمات عظيمة، ونشرت العدل والمساواة بين السكان، وجاء معه بأوراق وصور من إنجازات أيام ستالين وعرضها علي، هذا لأنه غائب في

سلفيته في بلد وفي حالة معينة عن الحاضر، ونسي أن الشيوعية سقطت من عام 89، لكن يحتج في هذه المحاضرة منذ فترة قريبة بحالة السلفية التي يعيشها، كما أننا دائمًا نحتج ونجادل بماضٍ سلفي أكثر مما نحتج بالحالة التي نحتاج أن نتجه إليها.

حالة العقل السلفي هي حالة واحدة، وهو منظور واحد، سواء كان في ارتكازه في الحالة الغربية، أو حالة قديمة، وهو في الغالب غير متسلح بقوى وثقافة ومعاصرة زمنه، هو مهاجر إلى زمن الآخرين.

17

أيضًا طرأ -وهو أسوأ ما في السلفيتين- استخدام التسلف تزلفًا. بمعنى التزلف بالتسلف للسلطة تسخير الدين لعبادة الأصنام الموجودة، والحديث عن أن الأصنام هلكت، أو أنها عاشت في الماضي، وهو لا يرى الأصنام التي يخدمها في زمنه المعاصر. كانوا يحكون نكتة في سوريا: «خالد البكداش، لو هطل المطر في موسكو فسيأخذ المظلة في دمشق».

فهذه الظاهرة متكررة، يحاول أن يرى، أو أن يعيد الإمام أحمد بن حنبل ليواجه به عقلانيًّا معاصرًا، أو مدعيًا للتعقل، فيجعل نفسه معيدًا لدور الإمام أحمد في مواجهة خصمه الذي يلبسه شعار المعتزلة (خصوم الإمام أحمد) مثلًا، ويختزل المكان، والزمان، والأفكار، والأشخاص ليصنع تسلفه المريح من عملية التفكير في الحالة التي يواجهها.

فهو حتى إذا واجه بعض من يسمون أنفسهم عقلانيين بينما هم ملحدون، فسيقول هم معتزلة عصرنا، كما هو أحمد عصرنا منتفشًا

بالتاريخ والدور. ولا يرى الفارق الأكبر من أن يختزل، لكنه لا يعرف بسلاحه الثقافي إلا قضية الاعتزال، فيقيس الملحد الذي سمى نفسه «عقلانيًّا» بذلك المعتزلي القديم الذي قد يكون تقيًّا صالحًا نظيفًا كعمرو بن عبيد. وهكذا في التعامل مع قضية التصوف، لا يرى الصوفية المنحرفة المعاصرة التي أنتجت كحركة عمالة مستقلة عن الصوفية القديمة، وبعد الصوفيات المعاصرة، فلا يفهم قضية التصوف إلا في سياق الجنيد، أو في سياق قديم جدًّا، ومختلف جدًّا.

فهذا السلاح الثقافي بحكم غربته لا يستطيع أن يساعد، هذه التحولات الكبيرة في مسألة السلفية أصبحت مضرة، ومعادية للأمة عندما تسخر الدين والدنيا لخدمة الطغاة عبر العصور.

18

وهنا نسأل متى يمكن للتسلف أن ينفع ويساعد في الإنقاذ؟

أولًا: لا يوجد حيوان بلا ذاكرة، فكيف بالإنسان؟ وللذاكرة دورها عظيم في حياته، وبدونها يسقط إلى حالة الحيوان، وينتهي بنفسه، ويضيق به غيره، كما هي أسوأ درجات مرض الزهايمر، وقى الله الجميع منه، إنما الإنسان المخلص يقوم بإدارة ذكية، ونافعة وعملية لذاكرته، فلا يقف عند نهاية المنتجات تاريخيًّا، بل يستفيد من لحظة الانقداح الحضاري لأي أمة، وهذه اللحظة هي الأخطر دائمًا في تاريخ المجتمعات، ولأنها لحظات فكرية وروحية، فإنه يصعب على المقلد ملاحظتها، أو حبس اللحظة للتفكير فيها، فدماغه المعتمد على الذاكرة التصورية للمنجزات؛

يذهب لآثار الوعي، لآثار شعلة الحضارة، لأنها أسهل في المراقبة، أو يذهب لما سبقها، ولهذا فإن الجهد الفكري المطلوب هو خارج الذكريات المادية وخارج الجدليات المتصادمة للسلفيات، ويكمن لحظة اشتعال روحاني وقيمي أخلاقي قد يشعر بوقده أفراد، ولكن ميلاده المؤثر نتاج حالة جماعية متوافقة، يتعالى فيها الفرد على ضعفه، لا على مجتمعه، يرحم، ويعطف، ويوقد، ولا يغرق في ذكريات وتصورات ماضية، بل إلى مصائر مستقبلية مثابة حصادها فوق تصور من يعمل لها، ولا يسفسف في تراب ماضي أي قوم، بل في مستقبله ومستقبل أمته.

الملحق الثالث
التسمم بالغرب[1]

يرى جلال آل أحمد أن الإسلام وليس التشيع هو السد الممكن أمام الاجتياح الغربي والإلحاق به متعدد الجهات، وينظر إلى الممارسات الشيعية بكثير من الشك والسخرية[2]. يقول: «كان قد اختطفنا النوم خلف الدروع التي أسبغنا بها رؤوسنا خوفًا من العثمانيين. ولم يقم الغرب فحسب بابتلاع العثمانيين، بل وصنع من كل عظمة من عظامهم دبوسًا

1 جلال آل أحمد، **الابتلاء بالتغرب**، ترجمة إبراهيم الدسوقي شتا، (القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، 1998)، وقد ألف جلال الكتاب عام 1964، على الأقل النسخة الأخيرة منه. ص. 2، وانظر هامش 1، ص 55. ووجدت أكثر من ترجمة للعنوان الفارسي، منها التسمم بالغرب، ومنها نزعة التغريب، ومنها صراع الغرب ونزعة التغريب، ومنها وباء من الغرب، وهذا يقترب من عنوان كتاب للشيخ محمد الغزالي عنوانه: **ظلام من الغرب**. كتاب جلال في مجمله نقد شديد لنزعة التغرب بعد أن عاشها فكريًّا وواقعيًّا، ولد جلال عام 1923م وتوفي عام 1969 عن خمسة وأربعين عامًا، وكان قد درس الأدب الفارسي في جامعة طهران، وانتسب إلى الحزب الشيوعي، ثم ترك الحزب وانتقده، وكتب نصوصًا عديدة أغلبها روايات، ورحلة حجته بعنوان: **قشة في الميقات**، وهي رحلة طريفة لم تخل من سخريات، وترجم كثيرًا من النصوص الأدبية غالبًا من الفرنسية.

2 من مقدمة المترجم إبراهيم شتا، ص 6.

حربيًّا تحسبًا لليوم الأسود الذي يثور فيه سكان العراق ومصر وسوريا ولبنان، بل واتجه إلينا بسرعة[1]. وأنا أرى جذور الابتلاء بالتغرب في نفس هذا الموضع. من ناحية في عدوانية الصناعة الغربية ومن ناحية أخرى في عجز حكومتنا القومية المستندة على أساس تقليدي، والتي سلطت على إيقاع قائم على قتل أهل السنة، منذ ذلك الوقت الذي نسيت فيه الهيئة الدينية عندنا، وغاصوا كعمال للظلم والجور في أجساد حكام الزمان». ثم يقول بعد ذلك: «..منذ ذلك الوقت الذي دخل فيه ميرداماد[2] والمجلسي[3] في خدمة البلاط الصفوي لاختلاق الأحاديث، ورضوا بالصمت الموافق المبارك للدعوة إلى التشيع». ويؤكد أنه لم يكن التشيع منتشرًا في إيران قبل الصفويين إلا في أقل من عشرة بالمئة من السكان، والآن [وقت كتابة كتابه] لا يصل السنة إلى عشرة بالمئة في إيران، ويذكر أنه بينما قتل العثمانيون نحو أربعين ألف شيعي فإن الصفويين قتلوا ضعفي هذا العدد من السنة بين الأكراد والبلوش[4]. «منذ ذلك الزمان الذي تبدلنا فيه من فرسان على جواد شمولية الإسلام إلى حراس للقبور وآكلي فتات على مائدة تعرض الشهداء للظلم، ونحن تمامًا منذ ذلك اليوم الذي تركنا

1 غالبًا يشير إلى جهود الغربيين في قومنة وعلمنة تركيا وإلحاقها بالناتو.

2 عالم ومتصوف وفيلسوف وصفوه بالمعلم الثالث، كتب أكثر من مئة كتاب، وكان يكتب بالعربية والفارسية.

3 يعدُّون كتابه **بحار الأنوار** المكون من مئة وعشرة مجلدات، وهو أهم موسوعة شيعية عن الأعلام والأفكار، من حماة مدرسة آل البيت، بينما الطبطبائي يرى أنه لم يكن من أهل الاختصاص في الفلسفة ولا من علماء الإمامية في الأبحاث الكلامية.

4 ص 45.

فيه إمكانية الشهادة وقنعنا فحسب بتعظيم الشهداء، فوجئنا بأننا بوابون للجبانات»[1].

في بحثه عن التاريخ الصفوي، والصفويون في الأصل هم أتراك، يبينّ أن الصفويين كانوا في مواقفهم السياسية ضد الأتراك صنعة صليبية غربية، ويرصد نسب عباس الصفوي من جهة أمه المسيحية، وعلاقاته بالمسيحية [أمه هي ابنة كاترينا المسيحية اليونانية وأم الشاه إسماعيل الصفوي]، ثم ما كان بعد ذلك من علاقات ومن استعانات بالغرب ضد العثمانيين، وأوزون حسن زوج كاترينا هو الذي استعان به الغرب لقتال محمد الفاتح بعد فتح القسطنطينية[2]. ويرى أن الصفويين «خلافًا للإمبراطورية العثمانية حولت إيران إلى صورة الحليف الطبيعي للعالم المسيحي»[3]. ثم يذكر أن العلاقة مع الغرب جعلت إيران الصفوية حليفًا طبيعيًّا للعالم المسيحي ضد العثماني، وأن السفراء الغربيين عند الصفويين «كانوا يوسعون الخلافات السنية الشيعية. وهكذا تجد إيران مكانها في صف الدول العظمى التي تدير أمور العالم، وأولى علاماتها علاقات بلاط أصفهان من ناحية بخان المغول الأكبر»[4].

---

1 ص 37.

2 ص 45.

3 ص 46 والذي يبدو أنه سيحدث مستقبلًا في حال سقوط أو تراجع الثورة الإسلامية أن إيران كما زادتها الثورة الدينية تشددًا قوميًّا وموتًا في الشرنقة الشيعية سوف يكون البديل العلماني مواليًا بتطرف للغرب والصهيونية ضد العرب وبقية المسلمين.

4 ص 46.

ثم يطالب الكاتب جلال بسعة الصدر بين السنة والشيعة والخلاص من الثقافة الصفوية ومن النفوذ الاستعماري الغربي باسم حماية التشيع أو حماية القومية الإيرانية، ويؤكد أن الإيرانيين -وهم قومه- لم يكونوا أتباعًا في العصر العباسي، بل كان لهم دور كبير في الحضارة الإسلامية، حتى يقول إن بعض المستشرقين يتساءل عن وجود أي دور لغير الإيرانيين في الحضارة الإسلامية العباسية التي بدأت قواتها من خراسان.

ويشرح فكرته بكلمات موجزة منها: الابتلاء بالتغرب أشبه بداء يصيبُ حبة القمح في سنبلتها فتراها من الخارج سليمة، ولكنها من الداخل فارغة متعفنة[1].

لقد حاق بنا «طوفان من الغرب طرفه نحن. البلوى ليست صناعات فقط، ولكن هذه المواد الخام ليست فحسب الحجر أو الحديد أو النفط أو النحاس أو القطر، بل الأساطير والصور والعقائد والموسيقى أيضًا»[2]. الشرق عنده هو الدول الجوعى والغرب هو الدول الشبعى؛ فمثلًا أميركا الجنوبية هي من الشرق الجائع المنهوب[3]، وجنوب إفريقيا قبل الاستقلال من الغرب[4] أجور منخفضة وزيادة في السكان ولا خبر عن الديمقراطية[5].

---

1 ص 15.

2 ص 15.

3 مثلًا ما يحدث في فنزويلا، فرغم ثروة النفط الهائلة، لكنهم بسبب اختلافهم مع المستغلين جوعى وعملتهم أصبحت بلا قيمة.

4 ص 16.

5 ص 16.

الفكرة الرئيسة التي يناقشها الكتاب أننا لم نستطع أن نحافظ على شخصيتنا الثقافية التاريخية، ولكن أصبنا بالاضمحلال ولم نتخذ موقفًا متزنًا في مواجهة غول العصور الحديثة، والموضوع هو أننا لم ندرك ماهية الحضارة الغربية وأساسها وفلسفتها وأخذنا تقاليد الغرب[1].

ويصف «المتغرب لا شخصية له، شيء فاقد الأصالة سواء في شخصه أو في منزله، ... كوزموبليتاني أي لا ينتمي إلى أي مكان، خليط من التفرد في الشخصية والشخصية الخالية من أي خصائص، وما دام لا يثق فهو يستخدم التقية، وبينما هو حسن المجاملة، وحسن اللقاء، إلا أنه لا يثق في الطرف الآخر، ولما كان سوء الظن مسيطرًا على زماننا، فإنه لا يفتح قلبه في أي وقت من الأوقات. المتغرب لا شخصية لديه، لديه خوف فحسب، الخوف من الفصل، والخوف من فقدان الشهرة والمنصب، الخوف من اكتشاف خلو المخلاة التي تثقل رأسه وتسمى المخ. الإنسان المتغرب فاسق متصف بالأنوثة، يهتم بنفسه كثيرًا، ويواظب على مظهره دائمًا، بل وأحيانًا ينتف شعر حاجبيه، يعطي حذاءه ومنزله أهمية قصوى»[2]. وكذا تحدث عن حكومتهم آنذاك التي كانت تغرق الناس في أخبار مشاريع عظيمة «تملأ عين الرجل الصغير، حتى يظن نفسه كبيرًا»[3]. أما الإنسانية فمدفونة تحت ركام الطغيان والقهر واللاإنسانية. ثم يساند هذا الضياع والقهر: «ماليخوليا الفخر بالماضي التليد بالرغم من أنها أيضًا من آثار ماليخوليا التظاهر بالعظمة. أنواع الفخر والفيهقة وقورش وداريوش.

1 ص 20.

2 ص ص 96–97.

3 ص 140.

هذه الماليخوليا تملأ الأذن أيضًا. هل رأيتم عاملًا شابًّا يمر في ليلة مظلمة من حارة خالية؟ لا بدّ أنكم سمعتموه غالبًا يغني، هل تعلمون لماذا؟ لأنه يخاف من الوحدة إنه يملأ أذنه بصوته. وبهذه الوسيلة يدفع الخوف عن نفسه. [ثم] ماليخوليا التواصل والدق المستمر وهو أن تصنع كل يوم عدوًّا جديدًا ووهمًا للناس الأبرياء، وتملأ بها الصحافة والإذاعة حتى تخوف الناس وتجعلهم يضعون رؤوسهم في جيوب ثيابهم أكثر من ذي قبل، وتدفعهم إلى الشكر على ما لديهم»[1].

وكنت قد قرأت عند سارتر في مكان آخر أنه يرى أن الرحالة هم الغزاة اللطفاء، أي رواد الاستعمار وليسوا المبشرين، بينما يرى جلال آل أحمد أن رواد الاستعمار هم المبشرون[2].

ثم يربط قصة الحرب التي كانت بين المسلمين وبين الفرنسيين في معركة قائد الفرنسيين شارل مارتل الذي قاتل الغافقي في بلاط الشهداء واستطاع إيقاف الفتح الإسلامي لفرنسا؛ قال جلال إنهم يسمون الخمر أو الكونياك الفرنسي بكونياك مارتل[3]. وكما يرى مالك بن نبي أن الفرق بيننا وبين الغرب نحو 200 عام فإن جلال آل أحمد يرى أن الفرق 300 عام تقريبًا، ثم يقول لو كنا صنعنا الآلة لما كنا محتاجين لما يقترن بها من ثقافة[4].

---

1 ص 140.

2 ص 22.

3 ص 23.

4 ص 24.

وأشار إلى أنهم عند كل بئر نفط حفروها أقاموا في مكان كل خيمة قصورًا وثقافة، ثم يسخر من المتغربين الذين يتعلقون بلغات أجنبية وبكل ما هو غربي، حتى معرفة ذاته ينتظر من الغربيين من يكتب عنها، فقد أصبح الإنسان عندنا يرى نفسه موضوعًا لبحث غيره، لا ذاتًا واعية بنفسها، ويسخر ممن يقلدهم في كل شيء. قال إنه زار صديقًا له فوجده قد بنى بيته على هيئة كنيسة روتردام لكن بدون الأبراج، ثم يقول إنهم يستغربون أي كلمة عربية أو أي كتاب سماوي، ويغرقون في الغرب واتجاهاته ويعرفون صحفه وينتظرون قولها عنهم، وإنهم يعرفون تلك البلدان ولكنهم لا يعرفون حتى اتجاه القبلة. ويتحدث عن ظاهرة الاستشراق والمستشرقين وتهويل معرفتهم وعلمهم، وهم أي المستشرقين، غالبًا مرتبطون بأجهزة التجسس الغربي، والأسوأ أن تجد خطيب الجمعة يحتج بهم على دينه وأدبه وتاريخه، ثم يصف المستشرقين بأنهم طفيليات نبتت على جذور الاستعمار[1].

والطريف أنه يرجع فيبين أن الغرب وفر لطلابه ولدارسي الشرق وسائل لم تتوفر لأهل الشرق في بلادهم مثل المكتبات والآثار والخبرات، وتعلموا مناهج تفيدهم في معرفة الذات والآخرين.

1 انظر ص 99 فما بعدها. وهذا يتفق مع رؤية مفكرين كثيرين منهم العقاد والشيخ محمود شاكر ومالك بن نبي وإدوارد سعيد الذين لا يرون لدى المستشرق لا علمًا ولا فكرة صحيحة، وربما أُتي المستشرقون من جوانب عديدة منها: ضعف اللغة، والبعد عن الخبرة بالمجتمعات التي يكتبون عنها وعن ثقافتها، هذا إذا تركنا تهم التجسس والتبشير وموقفهم المسبق المنحاز من الثقافة الإسلامية.

الانفصام والحرية

لقد نالوا -الغربيين- ا لحرية وحدهم لأننا غير جديرين بها[1]. حتى إننا «نقلدهم فيما تخيلناه ممارسة للحرية»[2]. ثم هم في زماننا يخافون من تذكيرنا بغياب الحرية في مجتمعاتنا، بل يقدمون لنا عبر متسلفيهم الحرية بأنها حرية ما تحت الحزام[3]، ويتعصب متسلفوهم لما تخيلوه فهمًا للحرية. ويعقب جلال متحدثًا عن الشخصية السطحية جدًّا للمتغرب: «الشخص المتغرب الذي هو عضو في جماعة القيادة في الدولة إنسان قدمه في الهواء، ذرة من الغبار معلقة في الفضاء. تمامًا مثل قذى فوق سطح الماء، قطع علائقه مع عمق المجتمع والثقافة والتقاليد. فهو شيء لا علاقة له مع الماضي، ولا أي إدراك له عن المستقبل، نقطة لا توجد في أي خط. في هذا الجزء من العالم، وبخاصة في البلاد التي تنتج النفط، فإن العادة أن كل ما كان أخف يطفو على سطح الماء. مخازن النفط تأتي فحسب بالقذى والقش إلى سطح الماء»[4].

---

1 ص 34.

2 ص 34.

3 هذا المصطلح قلته في مقابلة مع قناة العربية في مقابلة أجراها معي تركي الدخيل في برنامجه إضاءات الذي كان يقدمه على قناة العربية.

4 ص 93.

شرنقة القومية

«لجأنا نحن في هذا الركن من الشرق إلى شرنقة حكومة الوحدة القومية القائمة على أساس التشيع، ونسجنا خيوطنا حولنا أكثر يومًا بعد يوم»[1]. ومن الطرائف أنه عندما واجه الشعب الإيراني طغيان الشاه بعد مذابح خصومه لجأ القوميون إلى السفارة الإنجليزية في طهران[2].

بعد أن يذكر الأسباب التي يرددها شرقيون وغربيون للصعود الأوروبي، مثل: عصر النهضة واكتشاف البوصلة وفتح أميركا واكتشاف رأس الرجاء الصالح وكشف قوة البخار ودخول الهند واختراع الكهرباء، وما هو من البديهيات[3]؛ فإن آل أحمد يرى أن من أسباب النهضة الأوروبية حصار العالم الإسلامي للغرب: «الغرب، أي عالم المسيحية في العصور الوسطى، عندما وصل إلى أقصى درجة من حصار العالم الإسلامي له، أي عندما تعرض لخطر الفناء في مواجهة قوة الأمم الإسلامية من ثلاث

1 ص 37.

2 كان ذلك يوم 23 يونيو 1908، انظر هامش ص 56.

3 ويمكن إضافة أسباب أخرى للنهوض الأوروبي مثل الخسارة في الحروب الصليبية، مما دفعهم للبحار وللبحث في مناطق بديلة عن توجهه لبلاد المسلمين، ويضاف أن من أسباب الكشوف الجغرافية العمل على حصار العالم الإسلامي الذي حاصرهم من الشرق والجنوب في المتوسط، وبدأ يضغط من الشرق في آسيا الصغرى والبلقان، فأرادوا الالتفاف عليه من الشرق، ويضاف من أسباب صعود الغرب اكتشاف الطباعة، وظهور الإصلاح الديني، وزيادة السكان.

جهات الشرق والجنوب والجنوب الغربي، واضطر إلى جمع يديه وقدميه في نفس ذلك العدد من ولايات البحر المتوسط استيقظ بصعوبة، وتعرض لمواجهة خطر الإسلام يأسًا، وكأنه قط حبس في حجرة»[1]. فالعالم من بلخ وخراسان إلى قرطبة وحتى جزيرة صقلية كان يحاصر أوروبا. ثم يتساءل: «إذا كان الغرب المسيحي في خوفه من الفناء والاضمحلال في مواجهة خطر الإسلام قد استيقظ دفعة واحدة وشكل جبهته ونهض للمقاومة، ولا شك أنه نجا، ألم يصل الدور إلينا الآن لكي نحس في مواجهة قوة الغرب، وننهض، ونشكل جبهتنا ونقاوم؟»[2].

ويرى أن خوض السفن الغربية لطرق البحار الجنوبية الجديدة التي حلت محل طريق الحرير قد أفقرت المناطق التي كانت التجارة تعبر بها، خاصة إيران وجوارها، مما سبب «انكماشًا في شرنقة التصوف على الطراز الصفوي وفي شرنقة حكومة الوحدة القومية على أساس التشيع، وعندما أدبرت عنا الدنيا أدبرنا عنها واعتبرنا الغرب نجسًا، وعندما اتفق طرفا العالم في الاستغناء التام عن محطات قوافلنا، صرنا نحن منطقة محايدة على حدود الهند، منطقة يجب أن تكون هادئة ودون تدخل غير مرغوب فيه، ومهمتها الوحيدة ألَّا تعد مضايقة للهند، أو تكون مصدر تهديد لشركة الهند الشرقية»[3].

---

1 ص 38.

2 ص. ص. 38-39.

3 ص 40.

ثم يرى أن التسلل الغربي المسيحي زمن التجار البنادقة والمروجين {ومصطلح «المروجون» سكَّه الأستاذ القدير أحمد السعيد سليمان بدلًا عن مصطلح المبشرين} لمنطقة شرق إيران، ومحاولة تنصير الترك الإيغور والمغول وبداية التواصل بين إيران وبريطانيا منذ عام 636 هجرية، ثم يربط بين دخول المغول من الشرق، الذين وحدوا عالم الإسلام في الخراب، وبين دخول الصليبيين من الغرب، ويرى أنه كان هناك تحريض صليبي للمغول، وكذا عندما حاصر العثمانيون تجارة الغرب حين سيطروا على إسطنبول في عام 857هـ/ 1453م، قد تم الذهاب عن طريق رأس الرجاء الصالح تمامًا بعد ثلاث وخمسين سنة من سيطرة الترك على إسطنبول، وكذا يرى أن اكتشاف أميركا كان بسبب البحث عن طريقة لحصار العالم الإسلامي والتواصل مع خصومه.

وقد أشار ابن خلدون إلى هذا التواصل، وقال عن تيمورلنك «يعدُّه بعضهم صوفي المسلك، ويعدُّه بعضهم رافضيًّا، لأنهم رأوه يقول بأفضلية علي»[1]. يعقب جلال: «ثم ماذا فعل هذا التيمور الرافضي؟ قام مرة أخرى بتدمير العالم الإسلامي بحيث لم يبق عن الكرامة علامة ولا منها أثر»[2]. ثم يقول: «في الغرب كانوا يحلمون دائمًا بأن يأتي طاغية همجي آخر ويمرغ

1 ص 47، راجعت مقدمة ابن خلدون فلاحظت فروقًا بين ما كتبه المؤلف أو فهمه وبين ما كتبه ابن خلدون، وقد فهم المؤلف قسنطينة بقسطنطينية وكذا ما رآه أحدهم تنجيمًا جعله المؤلف حقيقة، وانظر ابن خلدون: **التاريخ**، (بيروت: دار الفكر، 2000م)، ج7، ص ص 732–733.

2 ص 47.

ظهر هذا البطل [الإسلام] بالتراب في النهاية»[1]. وكان ذلك من أسباب التسمم بنفوذ الغرب في حياة المسلمين.

في العصور الحديثة أي منذ نحو ثلاثمئة سنة بدأت أسر متنفذة في جلب مربيات مسيحيات لأبنائها، «هؤلاء هم الينابيع الأصلية لهذا السيل من الابتلاء بالتغرب»[2]. ثم أشار إلى امتداح المنافقين الغربيين للتطرف الصفوي وورثته. ولم يعش جلال آل أحمد ليقرأ فضيحة المنافق كيسنجر الذي قال لوزير الشاه في طريق عودته إلى مطار طهران: لو أن الشاه جاء للكونجرس لمدة يومين لقام بإصلاحه! وهم يستغلون ضعف الزعماء في عالمنا وولعهم بالمدح، وشوقهم لأن يقال عنهم إنهم مهمون للعالم فينفخون فيهم أكثر، ويلحق هؤلاء الضعفاء لتأكيد عقدة النقص؛ فيستكتبون صحفيين غربيين مرتزقة يمدحونهم، ثم يقومون بترجمة تلك المدائح إلى لغات محلية، ليثبتوا للرعاع أنهم عباقرة، وأن الغرب يقول عنهم عباقرة ملهمون وسياسيون بارعون، فكيف لا تمدحوننا أنتم ولا تقبلون بجورنا! ثم لا يكتفي المستعمر بذلك، بل يهمه زرع العداء بين شعوبنا، وزرع الخلافات بين حكامهم عندنا، ويزرعون مناطق محايدة لإنهاك الطرفين المغلوبين بصراع أبدي.

---

1 ص ص 41-44.

2 ص 49.

المستعمر والدين

يستخدم المستعمر الدين كما يستخدم أي فكر وسلوك في المستعمرات، ولكنه في الأصل عدوه الأول، فيمكن للدين أن يجمع الناس على قتال المستعمر ونقض ما يؤسس له في أي مستعمرة. والمؤسسات الدينية كما يقول المؤلف: «آخر أبراج المقاومة وأسوارها في مواجهة الأوروبي»[1]. ونعلم أن الأوقاف كانت من أول أهداف المستعمرين ووكلائهم في العالم الإسلامي، وقد كان همهم تصفيتها ثم عمت البلوى بلاد العالم الإسلامي، وفي مصادرة الأوقاف تجريد للدين من مؤسساته، وإضعاف التعليم الإسلامي، وتقوية المؤسسات المتغربة والغربية، وجعل رزق الشعب بيد مستبد واحد له كل السلطة أن ينهب ويهب.

وكذا منع المستعمر وسماسرته المدارس الإسلامية، ومنعوا تدريس الدين، أما في العالم العربي فأهانوا مدرسي الدين وأضعفوهم منذ تنفيذ أجندة المستشارين الإنجليز في كتابة المناهج وإضعاف كل شيء له علاقة بالإسلام، ليس فقط بسبب عداء المستشارين النصارى للإسلام وأهله، ولكن أيضًا يعلمون أن الإسلام محرض على مواجهتهم؛ فيقهرونه ويفقدونه موارده قبل أن يفكر في الحياة والقيام ضدهم، ونعلم أن قادة المواجهة مع المستعمرين كانوا من المدارس الدينية الإسلامية، من الهند

1 ص 51.

إلى المغرب والجزائر ومن العراق إلى الشام ومن روسيا إلى إفريقيا جنوب الصحراء.

قهر علماء الإسلام

ذكر أن المستعمر عبر عملائه في إيران أعدم الشهيد النوري بحجة أنه ضد التحديث والدستور، غير أن المؤلف يقول إن السبب كان لأنه دافع عن الشريعة، والمضحك أن النافذين في النظام كان أحدهم مسيحيًّا، والآخر شيوعيًّا قفقاسيًّا[1]. ثم من بعد ذلك حكموا كل المستعمرات بالحكام الذين نصبوهم، وألزموهم بموقف واحد متكرر بكل سخف وبذاءة وهو تجريم الإسلام ودعاته، ورميهم بكل نقيصة، ليبقى سماسرة المستعمرين حاكمين، يلقون على أنفسهم أوصاف العصمة والحداثة والتطوير، بل والتدين أحيانًا. إنه الثالوث العدو في جميع المستعمرات الذي يجب قهره وتشويهه وتمزيقه: الدين والأوقاف والشريعة.

ويتحدث عن صفة الحكام الذين يفرضهم التغرب ويعجب بهم ويروج لهم الغرب في مستعمراته: «جماعة يكونون على القمة، أي العاجزين العاطلين وفاقدي الإرادة. فالحكم العام في هذه الديار هو منح من لا جذور لهم أجنحة وقوادم أي لمن لا شخصية لهم، إنْ لم أقل للسفلة والأدنياء، وكل من له حق أو يتحدث الحق أو يرى رؤية صحيحة

1 ص 51، ثم يسخر المترجم من جامعة مصرية أجازت طالبين من طلابها كتبا عن ذلك العهد في إيران بدرجة الدكتوراه مع مرتبة الشرف لكل منهما، والرسالتان لم يذكر فيهما رجال تحدثوا عن حقيقة تلك الشخصيات من العلمانيين السماسرة الأوصياء على إيران، فلم يرد في الرسالتين أي ذكر لجلال آل أحمد ولا لعلي شريعتي. هامش ص 51.

ويمشي مستقيمًا فلا مكان له في هذه الجماعة، ينبغي على الإنسان لكي يصل هنا إلى القيادة بحكم التبعية للغرب أن يكون سهل القياد، وألَّا يكون أصيلًا وألَّا يكون أصوليًّا، وأن يكون بلا جذور، ولا أساس في طين هذه الأرض ومائها»[1]. ونسي جلال عقدة المستعمر في قلب الشعوب المستعمرة بحيث يجعل عاليها سافلها، وسافلها عاليها، ليكون الجديد ممتنًّا وعابدًا للمستعمر، فهو من أعطاه قيمة وأهمية.

الحكم القوي في المستعمرات

لا يثق الغرب بأي حكم معتدل ولا منصف في المستعمرات، بل لا بدَّ أن يكون قويًّا، أي قاهرًا للشعوب، ذليلًا للمستعمرين، يوفر مصالحهم ويقهر من يطمع في خلاف الغربي النافذ ومصالحه، فالقوة مقصود بها تأمين مصالح المستعمرين، وسماسرتهم في الداخل[2]. وكلنا يذكر الموقف من الديمقراطية في مصر بعد الربيع العربي وتعليقات بعضهم بأن الغرب لا يثق إلا بالعسكر. وهذا مفهوم، فالحكم يمنح لمن يستطيع قهر الشعوب. أذكر أن الصحفي فريدمان أغرقنا بمقالات ينعى على الصهاينة مستقبلهم بعد الربيع العربي، خاصة بعد سقوط مبارك، فقد تعود الغربيون في السابق التعامل مع دكتاتور واحد هو مبارك في مصر، والآن –بعد الثورة– عليهم أن يتعاملوا مع الشعب المصري، وهي القصة نفسها في إيران، لا يعرف الغرب التعامل مع شعوبنا ومع مَنْ تختاره، بل

1 ص 94.

2 أشار إلى هذا في صفحة 56.

لا بدَّ من تنصيب عملاء ودكتاتوريين يضمنون مصالحهم، ويضمن لهم الغرب استمرارهم وقهرهم لنا. وهذا الطغيان والاستعباد والسمسرة لا يمكن أن يسمح بالحديث عن حقيقتها، بل تمدح ويُعدُّ كل كبح لشعوبنا وكل قهر واستعباد ونهب انضباطًا وأمنًا واستقرارًا، وينظر إلى شعوبنا أنها قطعان من المواشي يسمونهم صراحة «رعاعًا»، تحتاج إلى أن يعينوا لها راعيًا من جهتهم، يعيش بوجهين وجه العبودية لهم، ووجه الطاغية ضد الشعب. ثم يلمّع بعض السماسرة والسخفاء هذه الدونية والتبعية بأنها الأمن في مواجهة الفوضى، وأن الحرية فوضى، والعبودية للمستعمرين، ولسماسرتهم أمن وانضباط.

هذه التجربة فرضها الإنجليز في إيران لتأمين مصالحهم في النفط وبيعه للإيرانيين، تمامًا كما حاولوا أن يسيطروا قديمًا على زراعة الدخان وتصديره؛ فواجههم علماء الشيعة وأفتوا بتحريم التدخين، فخسر الإنجليز خسارة عظيمة واستمرت الفتوى حتى رفع الضرر.

مظاهر تبعية يسمونها تطورًا

يهتم المستعمر وسماسرته بفرض ثقافة المحتلين، بدءًا من قلع العمائم، وخلع الحجاب[1]، وتعرية النساء، ويفرح السماسرة بهذا ويسمونه تطورًا! ولكنهم لا يفرحون لهم إلا بحرية منتهكة وكرامة مسلوبة، وكما وصفهم شوقي: «يا له من ببغاء عقله في أذنيه»، يستعبدون الشعوب حتى في اللباس ثم يسمون العبودية تطورًا، ويسمون ثقافة القرود تحضرًا.

1 ص 57.

في إحدى الجلسات التي كنا نجلسها مع زملائنا من ذوي التخصص العلمي في أميركا، قال لنا صديق يعمل في تركيب الأجهزة الطبية في المستشفيات أن شركته في بلد عربي كانت تؤمن أجهزة لأحد المستشفيات. يقول: ولما حضرنا لتركيبها وكان الطاقم كله عربيًّا، قال المسؤول في المستشفى: لا يمكن هذا، لقد قلتم لنا إن الأجهزة أميركية وما منكم ولا أميركي واحد؟ كان أحدنا ذكيًّا حريصًا على مبلغ العقد، فطلب منا أن نرجع وأن نحضر مهندس الجودة الأميركي قال: وجئنا بشخص أشقر لا يفهم شيئًا أبدًا في الأجهزة ولا العمل، وأوقفناه وكأنه يراقب العمل ونحن كنا من قام بكل شيء، فرضي المسؤول الجاهل.

عقدة الدونية تلاحظها في التعلق التسلفي بكل ما عند الغرب، حتى ما لا يناسب. ذكر منيف الرزاز في مذكراته أنه تعود في نمط بيتهم الشامي أن يلبس حذاء خاصة لداخل البيت، ولكن نمط التطور الغربي لا يقبل هذا النموذج، فتخلى عن تقاليده، حتى سافر إلى اليابان فوجدهم يلبسون حذاء خاصًّا بالبيت، ففرح لانعتاقه من القيد الغربي! وهكذا في المعمار وشتى فنون الحياة واللباس. وكم أسخر من عربي يلبس اللباس الغربي الداكن أو الصوفي كاملًا في صيف صحراء الجزيرة العربية الشاوية، يشويه الحر من الداخل والخارج ويبقى وفيًّا للباس تغربه، فقدنا بالتسلف للغرب حتى راحتنا التي تعودناها في بيوتنا، وحتى أصواتنا ومزاجنا أصبح مكروهًا عندنا، حتى الموسيقى: «نعاف موسيقانا التقليدية والجديدة ونعدُّها نشازًا لا فائدة فيه»[1]، وحتى التعري والموسيقى الصاخبة غير المفهومة. كنت في مقهى في القاهرة زمن الرئيس مرسي، رحمه الله، وكان في المقهى

1 ص 132.

موسيقى غربية صاخبة لا تريح ولا تليق، فقلت للعامل: أرحنا من هذه. وبما أني كنت ملتحيًا فكان رده عجيبًا، قال لي نصًّا: «أنا أكره الإخوان». فبينت له أني لست منهم، وبينت له أن عندكم في مصر موسيقى أفضل مما عند غيركم، وذكرت أسماء من القليل الذي أعرفه، فهزته العصبية وغيّر عن السفه التسلفي الغربي. وتلك عقد دونية منتشرة في عالمنا على كافّة المستويات، ولا أستثني.

ومرة في المغرب كان شاب أميركي مسلم يستمع لموسيقى غربية كلماتها نابية، فسأل رفيقه العربي: هل يفهم الناس هنا هذه الكلمات؟ قال زميله: لا، والحمد لله أنهم لا يفهمونها، ولكن ساد في مجتمعاتنا مرض الدونية المدمر الشامل. وقل ذلك أيضًا عن تركيا، إذ لا تسمع في مطاعمهم ومقاهيهم موسيقى تركية، بل كلمات إنجليزية قذرة غالبًا تلقى على الآذان وتوحي لأصحاب المحلات بالتطور فقط لأنها غربية.

أتباع ولا يشعرون

كتب أحد الكتاب البهائيين ساخرًا من شعبه المتغرب، وهو مثال صارخ لكل مجتمعاتنا التي تحاول اللحاق بالتغرب: «لقد رأيتم من فرجة الباب أن الأوروبيين كلهم متعلمون، لكنكم لم تروا رسوخ تقاليدهم ورسومهم، ولا تعلمون أن جهاز التعليم عندهم من روضة الأطفال حتى الجامعة قائم على الكنيسة، ومنذ فترة قمتم بالقضاء على هذا الأساس في بلدكم»[1].

1 هامش ص 52.

قرأت مرة دراسة عن مناهج التعليم البريطانية وكيف تقدم تاريخ مجرمي الحروب الصليبية لطلابهم، فكانوا يتحدثون عن تاريخ شجاعة وبطولات، وبسبب العلمانية التي رسخوها فلم يتعرضوا لدوافع الحماسة الدينية للصليبيين، ولكن يرسخون في قلوب تلاميذهم تقديس قتلة المسلمين، ويبطنون هذه البطولات في وعي الأطفال.

ومن تجربة شخصية فقد لاحظت أنني أحيانًا وأنا أناقش ملحدًا أميركيًّا سرعان ما يخرج لي من تحت جلده متعصبًا مسيحيًّا أو قوميًّا، وإن ابتعد فلاتينيّ الثقافة والموقف! وللأسف فإن الأتباع عندنا لو سرت معهم بعيدًا لحاولوا التنكر لثقافتهم وجذورهم وبحثوا عن جذور هناك، فقد قبلوا بأن يكونوا مجتثين من ثقافتهم، وليعلموا أن المستعمر لا يراهم في أفضل الأحوال إلا سماسرة ومبشرين به وأتباعًا، يمدحهم بالتنوير والوعي ليطوقهم بقيود التبعية، ويكلفهم بالسمسرة له، حتى لاحظنا أن سروش يمتدحه اليوم غربيون بأنه لوثر الإسلام، لأنه أصبح أقرب لما يريدون[1].

الوعي وسماسرة التفرنج قسرًا

سيقول السماسرة عن كتابتي هذه إنني مؤيد للثقافة أو الحكومة الإيرانية، وهذا كذب محض، فما أقوله هنا هو أن أشير إلى التماثل بين السماسرة في العالم الإسلامي، وأن غلو السماسرة في صناعة التبعية للغرب، التي انتهت بفشل الديمقراطية في إيران زمن مصدق عام 1953 هي

1 انظر ما كتبته الصحفية الأميركية روبن رايت عنه من تمجيد في كتاباتها عن إيران.

نفسها التي أفشلت ديمقراطية مصر عام 2013، وما تبع ذلك من تدمير روح الشعوب وقهرها بالمفسدين الدكتاتوريين الأتباع للمصالح الغربية. نحن بعد ستين عامًا من تجربة إيران لم نصل للوعي ولا للفهم الذي يجب استصحابه من بقية المستعمرات، وستكون في بلداننا جولات وجولات قد لا تتم في أعمارنا، وللأسف سيكون بعضها انتقامًا شاملًا وليس فقط تعييرًا بالتبعية وأهلها، ثم إن شعوبنا المقهورة بالتبعية والتغريب سوف تتحرك مرات ومرات لإزالة العبودية والقهر والاستغلال وتنتقم من كل السماسرة، وهذا الاضطراب سيزيد من معاناة شعوبنا.

عندما نكتب عن تجارب الآخرين وأقوال مفكريهم فليس إلا لنحيي الوعي في مجتمعاتنا ونجعلها مطلعة على تجارب الآخرين، وحين تطّلع فلا يعني أن تتبعها في النقمة، ولا في الثورة نفسها، ولكن لأخذ الدروس والخلاص من قيود المستعمر وثقافته وأسر زبانيته. ومن ثمّ أن تتخلص من قيود التجارب، إن كان استطاع أن يعي تلك التجارب.

عن السكان

يرى المتغرب أن سكان بلاده يسببون أزمة تنموية، وأنهم مشكلة، ليس لأنه مقتنع ولكن لأنهم حذروه في مؤتمرات السكان المتتالية وآخرها مؤتمر القاهرة 1994، ثم مرة أرسلوا كميات هائلة من الموانع الذكرية إلى بعض قرى صعيد مصر فوجدوا الأطفال في الأيام التالية ينفخونها ويلعبون بها. ترى الحكومات الغربية تحزن لهرم سكانها وتستورد سكانًا مسيحيين بلا شروط، وتستورد من المسلمين بحسب شروط أغلبها تقنية ومهتمة بجيل

الشباب، وبمن يمكنه الاندماج بسرعة في مجتمعهم. أما علماء التقنيات المسلمون فهم هناك بلا عدد، جحدتهم بلدانهم أو وضعوهم في مهن غير لائقة بهم ولا بتخصصاتهم فذهبوا إلى هناك وقدموا معرفتهم وخبرتهم، ونالوا ما يليق بهم.

وتجد شبابنا يصطرعون كثيرًا على المناصب العلمية وليس على البحث ولا على التجارب، فالمجتمع والحكومات لا تعطيهم فرصة، بل تعلقهم بنمط تفكيرها. زرت أحد العلماء التطبيقيين العرب الذين هجروا البلاد العربية إلى أميركا، ولم يستفد منه المسلمون هناك، إلا أنه بسبب شهرته ونفوذه استطاع أن يوفر للجالية في مدينته طائرة يرصدون بها ظهور القمر ليفطروا أو يصوموا. قلت له: لماذا جئت إلى هنا وقد كانت تيسرت لك فرصة عمل في دولة خليجية غنية. قال: السبب أني كنت مهتمًّا بالبحث العلمي، والكلية هناك لا تفكر فيه ولا تهتم به، وقد حاولت مع أحد المعيدين أن يكون مهتمًّا بالعلم والبحث فقال لي صراحةً: دلني كيف أصل إلى رئاسة قسم الهندسة، وهذا كان همه. وفي بلد آخر كانت مشكلة أحد العلماء الشباب المخترعين الذي سجلوا اختراعات عديدة أن زملاءه في القسم يريدون إبعاده لأنه ليس من بلدهم، وهم يريدون الفرص لأقاربهم وغالبهم غير مؤهل. وحدث معي وليس مع غيري أن اعترضت على أخلاقيات أحدهم في الجامعة فكافأه المسؤول ببعثة للدراسات العليا لأنه من قبيلته، مع أنه لم يكن كفؤًا لشيء، وكأني أرى الأذكياء الأكفاء يولون خارجين دون أي تقدير. أحد الأذكياء تخرج بمعدل عالٍ جدًّا، ويعرف أنه كان حقًّا له أن يعين معيدًا في الجامعة، دخل على عميد الكلية فقال له: سنرسل أوراقك للابتعاث. قال: وعندما كنت

خارجًا من مكتب العميد قال: بالمناسبة من أي بلد أنت؟ لأن اسمه لم يكن يحمل اسم قبيلته ولا يوحي بمنطقته، فذكر له المكان، فتغير قول العميد وقال: الأسبوع القادم تستطيع مراجعة مدير مكتبي. فبسبب أنه ليس من منطقته ألغى بعثته. مرة صادفت طالبًا في أميركا ولاحظت أنه كان بليدًا جدًّا، سألته كيف حصل على بعثة؟ فقال لي إنه أُعطيَ بعثة للدراسات العليا لأن أحد المشهورين النافذين كان من أقاربه[1]. قصص كثيرة عرفتها عن قرب لا أشغل القارئ بها، ينفذها متسلفون للماضي أو للغرب، أو متعصّبون لقبائلهم وقراهم، ويصنعون من خلال نفوذهم التخلف والجهل، ويستغلون مناصبهم لهدم أسس الأخلاق والمهنية، وبعض رؤساء الجامعات كانوا يستغلون غياب مجالس الجامعة في الصيف ويمنحون الواسطات قراراتهم. وهذا جانب من داء الوساطة المدمر للمجتمعات الذي لا يعرف دينًا ولا زندقة، وكلا الطرفين غارق فيه ولا فرق بين متدين بالسلف أو متزندق متسلف للغرب.

البنوك والاقتصاد والمؤسسات والمستشارون

اجتاحت عالمنا بنوك غربية[2] تملك ثرواتنا وتسيطر على كل شيء، حتى تحويل العملات، وهي عملاتهم، لا بدّ أن يوافق عليها مركز في نيويورك أو مكان آخر لليورو في أوروبا، لو كان لك حساب في مكان آخر وتحول

1 ليعذرني أصحاب هذه القصص عند قراءتها وقد حدثوني بها، وتركت بعض الأمثلة الأكثر صراحةً لأن أصحابها قد ينزعجون من ذكرها.

2 أشار إلى قصة البنوك في ص 84 فما بعدها.

من حسابك لحسابك لكان لا بدّ لهم أن يعرفوا لماذا؟ هذا إضافة إلى أنك تشتري عملتك التي تسقط كل يوم وتتراجع عن سعر عملتهم، فأنت تحمل قراطيس هي عملة بلدك، ولكن قراطيسهم مثمنة بالذهب وبالذهب الأسود. ترى هل الموجة القادمة لمنظمة بريكس سوف تحررنا وتحرر بنوكنا وثرواتنا من هذا الغبن؟ الخبر يقول إن الهند، ربما بأمر غربي، رفضت إنشاء عملة للبريكس.

ثم إن لعبة المستشارين إحدى اللعب التي تغتال عقول الدول التابعة وأموالها ومصالحها، فالمستشار يعيش براتب أضعاف ما يناله في بلده، وهو أحيانًا شخص فاشل في بلده وجاهل، لكن جنسيته ولونه يسيّده على المرضى بالتسلف الغربي. والطريف أن عدد المستشارين الأميركيين في إيران بلغ قبل الثورة أربعين ألفًا[1]. فلماذا لا يكف الشرق والغرب عن إرسال مستشاريه للارتزاق وتحقير العقل المحلي؟ «ومصطلح محلي [local] وصف استعماري احتقاري لسكان أي بلد يتنفذون فيه»، ثم إن المستشار الغربي ومن يوجه القرار هو المسيطر على جوانب الحياة، وهو يستشار في مصير المستعمرات السابقة، وشبه المستعمرات، وليس للمحلي صوت ولا دور، «وهكذا سقطنا فريسة لقادة مبتلين بالتغرب»[2].

المتسلف إسلاميًّا أو متغربًا مفصول عن زمنه، وحتى لا يكاد يفهم من أين يأتي رزقه، يعرف أن نفط بلاده أو معادنها تباع وأنه يعيش منها، ويندر أن يعرف غير ذلك، وقد يترفع عن معرفة موارد معيشته. انظر كم كتب

1 هامش صفحة 90.

2 ص 93.

سلفنا عن الخراج وقضايا المال في كتب الفقه، وسلفيونا من الإسلاميين قد يجيدون الرجوع إليها، لكن ليست لهم معرفة كيف تصلهم معيشتهم في زمانهم ولا علم لهم باقتصادها. تحدثت مرة عن هذه الظاهرة في تقديم لمؤتمر عن النفط، وقلت قد تجد آلافًا متخصصين في ابن تيمية، ولكن لن تجد متخصصين في اقتصاد النفط وآثاره. وكذا المتسلفون للغرب لا يفهمون شيئًا عن اقتصاديات النفط ولا عن معيشتهم منه، لكن يمكنهم أن ينافسوا على مناصب ثانوية في شركات الزيت في بلدانهم، ثم الأسوأ من ذلك أن معلوماتنا عن ثرواتنا لا تجدها بلغتنا.

ويتمتع الغرب والتغرب واقتصاده بمَيْزة أخرى، وهي أنه يلجئ أو يستضيف أغنياء العالم وأموالهم إلى بلاده ويوفر لهم الحماية ويعطيهم الجنسية، فهو يخيف المختلفين معه في المستعمرات ويستضيف من يعارضهم، ويذكرون أوضح الأمثلة أن مستبدي إفريقيا يطلبون قروضًا تنموية لبلدانهم، فتدفع لهم من البنك الدولي وغيره مقابل تشكيل إدارة البلاد وتنقيص قيمة عملتها، ورفع الدعم عن ضروريات السكان المعيشية، وسياستها وفق مصلحة الشركات الغربية، ثم حين يرسلون القروض فإن الحاكم يبعثه إلى حسابه الخاص في بنوك سويسرية أو غيرها في حين يغرق بلاده في ديون لا حد لها، ثم لو تمرد استبدلوه بآخر تابع ويعود تكرار مشاريع القروض والإفقار من جديد.

الديمقراطية

في المستعمرات من طالب من المقهورين بالديمقراطية فزبانيتهم سيقولون للمقهورين أعطيناكم أو سنعطيكم ديمقراطية، ثم يفتحون

لهم قصورًا حديثة أنيقة يسمونها برلمانات، أو مجالس للشعب، ثم تبدأ مسرحية التصويت والعمليات الملهيات الكثيرة، وأحيانًا يواجه من يطالب بديمقراطية حقيقية بالقول إن الشعب ليس جاهزًا لها، ولم ينمُ فكريًّا ومصلحيًّا وإداريًّا، وكأن شعوبنا أجهل من البريطانيين قبل خمسة قرون، وأجهل من اليونان قبل نحو ثلاثة آلاف سنة، وأجهل من سكان بابل وآشور قبل زمن اليونان، بل أجهل من شعب سبأ. يقول جلال آل أحمد: «نقوم بالتظاهر بالديمقراطية، لكن لا خبر هناك عن الديمقراطية الغربية نفسها وشرائطها وموجباتها: حرية الحديث وحرية إبداء الرأي، وحرية الاستفادة من وسائل الإعلام، التي هي من محتكرات الحكومة، وحرية نشر الآراء المخالفة لسلطة الحكومة... ما هو مسلم به أننا لا نستطيع في مثل هذه الأوضاع أن نقلد الديمقراطية الغربية، فليس مسموحًا لنا بهذا التقليد، وليس في مصلحتنا... والتظاهر فحسب بالديمقراطية الغربية هو في حد ذاته إحدى علامات الابتلاء بالتغرب»[1].

الجيش

يسخر المؤلف من هذا التغريب الذي يسخّر قدرات الشعب وثروته للجيش، وقال إنه في زمنه في إيران كان الجيش يستقطع ثلاثين في المئة من دخل الشعب، وربما في الحقيقة خمسة وأربعين في المئة، ويقال للناس إنه لحماية حدوده، ولكنه لا يحمي المجتمع من الشركات الأجنبية، ولا يكف

1 ص 111، وقد كتبت كتابًا بعنوان: **الديمقراطية: الجذور وإشكالية التطبيق**، طبع أربع طبعات، وكان من الكتب الأعلى مبيعًا في معرض الرياض للكتب عام 2012.

هيمنتها على الموارد[1]. وقد رأينا في بعض البلدان كيف أصبح الجيش محاربًا للشعب وينتصر عليه ويستعبده لصالح حكومات في الخارج أو شركات أجنبية. ورأينا كيف ينصّب الغرب وأزلامه أوثانًا في عالمنا ثم يخرّ المتسلفون تزلفًا لها ركعا وسجدًا رغبًا ورهبًا، بل رعبًا مما ينتظرهم لو خالفوا الأصنام أو فهم أنهم لا يحترمونها، هذا دون أن يلفظوا، فكيف لو سعى جواسيس الأصنام بأن فلانًا ينتقد صنمًا فلن يكون مصيره إلا الإعدام.

ويتحدث المقهورون في بلاد التغرب كثيرًا عن جيوش بلادهم، فتجد من يقول إنها حراسة لمصالح المستعمرين وشركاتهم وبنوكهم، تصنع الولاء الدائم لهم، ومنهم من يقول إنها حماية لأصنامهم المحلية، وآخر يقول إنها وسيلة لتطوير مصانع السلاح الغربي وبيع خردواته للعالم الثالث، ومنهم من يقول إن تلك الجيوش تقوم بدفع الضرائب المالية المفروضة للغرب من ثروة الشعوب المقهورة باسم التسلح. يمثل جلال بالجزائر ومصير جيشها فيقول: «وماذا يجدي الجنود والسلاح، [بعد الاستقلال] إلا قتل الأشقاء»[2].

الأمن وتصدير البلطجية

تكثر مؤسسات الأمن والتجسس على السكان في المجتمعات المقهورة، وتكون لها السيطرة على الألسنة والقلوب في المجتمعات التي

---

1 ص 108.

2 تكاد أحيانًا أن تقول ليته شهد ما حدث هناك خلال ما سمي العشرية السوداء في الجزائر، بعد أن قضى عساكر فرنسا على اختيارات الشعب عام 1991م، أو تقول ليته شهد نتائج الانقلاب على الشعوب العربية التي قامت بالربيع العربي بعد عام 2013م.

قهرت بالمتسلّفة المتغربين، ويقوّى جانب الأمن ضد الفكر. وقد أصبح من المعادلات المهمة في مجتمعاتنا أنّ تقوية الأمن تعني إضعاف الفكر[1]، كما تعني قهر الثقافة والمثقفين. وبدلًا من أن تكون مهمة الأمن تأمين المجتمع ضد ما يدمره أصبح عمل الأمن السهر على ترويع المجتمع وتجهيله وتسخيف اهتماماته، وفي بعض البلدان نشأت عصابات همجية تذل الناس في المجتمع، وهي مكلفة بالتدمير الروحي والخلقي والمعرفي والقانوني في المستعمرات المتغربة.

يتحدث جلال عن أن أوروبا كانت تصدر البلطجية بحجة حماية الشركات ورعاية مصالح المستعمرين، وذكر نماذج في زمانه، أن «عملها قمع الحرية حيثما لزم، وتقديم الخدمات لشركات النفط والذهب حيثما تطول ألسنة الأهالي، وبلطجة لحساب كل طاغية يدفع أكثر... والأهم من هذا كله أنها سلب الحرية من الدول المستعمرة المتأخرة»[2]. وما بلطجية زماننا المحترفون إلا تطوير لتلك المهنة، فقد استطاع كل مفسد تكوين عصابات من هؤلاء، ولهم حماية دولية من الدول الكبرى. وليست عصابات بلاك ووتر لإريك برنس وعصابات فاغنر إلا نماذج وأسماء حديثة لمهنة غربية مستمرة عبر العصور، وهي غالبًا عصابات محترفة موجهة للخارج للقتل والاغتيال في المستعمرات وخدمة الحكام الأتباع، وكانت تغتال المعارضين لنفوذها[3]. وقد استخدمتها حكومات

1 ص 112.

2 ص ص 126-127.

3 راجع ما كتبه فيليب آجي عن أعمال السي آي آيه في أميركا الجنوبية، وله أكثر من كتاب=

كثيرة عبر التاريخ، ولكن الأسوأ هي المعاصرة المحمية بسلاح الدول العظمى ونفوذها وتحميها من كل عواقب جرائمها. مثلًا بلاك ووتر التي نفذت جريمة قتل أبرياء وأطفال في ميدان النسور في بغداد، وبعد التوثيق والمحاكمة وإدانتهم عفا عنهم الرئيس الأميركي ترمب، لأن الضحايا من العراقيين، أو لأن مالك شركة القتل يدعم الحزب الجمهوري. وقد قامت حكومات مستغربة بتجنيد مرتزقة محليين لاغتيال معارضين خارج بلادها أو داخلها أو إيذائهم ليكفوا حتى عن الحديث لأقرب الناس أو الشكوى من الأذى. ذلك نموذج من التسمم بطرائق الغرب وثقافته المعاصرة وتقليدها، لكن الغرب يمارس ذلك في المستعمرات وشبهها، والمتزلفون يمارسون هذا ضد شعوبهم.

يعلق المترجم بأن ما كتبه المؤلف كان عن البلطجة في زمنه، ثم يقول المترجم: «هذا في زمن تأليف الكتاب، وفي زمن الترجمة جهاد فرنسا جهاد المستميت في مواجهة وصول الإسلاميين إلى الحكم في الجزائر حتى عن طريق صناديق الانتخاب، ثم تكوين فرق الاغتيال التي تغير على القرى الآمنة وتقوم بالمذابح المنكرة للآمنين، ثم تلصقها بالإسلاميين. ولا جديد تحت الشمس!»[1].

=مروع عن تجربته الشخصية وما كانت تفعله السي آي آيه في أميركا الجنوبية، بعض أعماله ترجم إلى اللغة العربية، وقد حضرت له محاضرة في أميركا كانت مذهلة من حيث المعلومات ومحزنة.

1 ص 126 هامش.

التعليم

يصاغ التعليم في البلدان المتزلفة إرضاء لعين الغرب، ولا بدّ أن تشمل مناهج المتزلفين ما في مناهج الغربيين، ولا بدّ أن تكون مثلهم، ولكن في السلبيات وليس ما يحيي مجتمعاتنا، ولو أمكن أن يجعلوا كل تعليمنا تقليدًا للأجنبيّ ومدارسنا متغربة بتقليد شكلي فذلك أملهم، ويقوم التعليم المستغرب على هدم المؤسسات والتعليم الديني في عالمنا، وأنّى لتعليم إسلامي أن يقوم في زمن الهيمنة الاستغرابية. تجد التعليم في مجتمعاتنا يترنح بين نصوص سلفية إسلامية مستعصية أحيانًا على الفهم، وأذكر كيف كان مقررًا علينا مناهج تدرسنا الفقه بحسب المقاييس والمكاييل المتداولة في العصر العباسي، وكان علينا أن نحفظ الإردب والرطل العراقي، ولا يعرف أستاذنا عن ذلك شيئًا ولا طلابه، فيبقى التعليم الإسلامي غريبًا على من يلوك ألفاظه. أما التعليم الغربي فقشرة ساذجة مستوردة يلهج بها متسلفون للغرب يتطاولون بأنهم يعرفون عن زمانهم ولغات عصرهم، وما معرفتهم بالثقافة الغربية إلا أقل من معرفة المتسلفين الإسلاميين بالتراث الإسلامي المجتث من زمن بعيد ليعاد إسماعه للمعاصرين بلا فهم ولا تطبيق.

نعم كان هناك اهتمام بالمدارس الإسلامية في زمن الاتحاد السوفيتي وزمن الصراع الأميركي مع الشيوعيين والقوميين في العالم الإسلامي، وكانت هناك محاولات لتأسيس روابط ومنظمات إسلامية لتجمع

المسلمين مع المسيحيين الغربيين للتغلب على اليسار العالمي، الذي كان يهدد مصالح الغرب، وبعد نهاية الحاجة للمدارس الإسلامية أُفشِلَت وأُنهِيَ دورها، خاصة أنها في إيران ساعدت على الثورة ضد الشاه وضد المصالح الأميركية، وطالبان التي حررت بلادها حركة دينية ضد الاحتلال الغربي، فما أسرع وأميع النظم في العالم الإسلامي، فقد تحولت الموجة للتسلف الغربي بعنف وقهر، وشُوِّه كل ما سبب ثورة أو غضبًا على الغرب في عالمنا، فنحن شعوب حكوماتها غاية في السهولة كالصلصال بيد من يدبر تعليمنا ومناهجنا واتجاهاتنا من هناك، وقد تبين أن التسلف الإسلامي كان موجة مفيدة لهم زمنًا وقام بدوره ثم انتهى دوره فوجب قهره ونفيه، حتي لا يصنع حياة مضادة لمصالح الغرب، ولا ممثليه وسماسرته عندنا. وحان دور التسلف الغربي ليتمَّ دوره ولا ندري إلى «أين نحن مساقون».

ولهذا ستكون نتائج التعليم المطلوب: «رجال بلا إيمان، فارغون من الحماس، أدوات بلا إرادة في أيدي الحكومات، كلهم متفاهمون وجبناء ولا يصلحون لعمل»[1]. وعن التعليم الجامعي يقول عن جامعة طهران وقتها: « إني أستطيع بصعوبة أن أسمي هذه المؤسسة جامعة... هي دكان من أجل جماعة من المفكرين المتغربين الذين عادوا من أوروبا وأميركا، وسمعوا التأفف من تقاليد جامعة طهران التي تحجرت بهذه السرعة فذهبوا، واعتمادًا على أصحاب المناصب الأعلى فتحوا دكانهم لأنفسهم»[2].

1 ص 114.

2 ص 115، ولعله يقصد فتحوا جامعات خاصة بهم.

مبتورون[1] ولا يفهمون

المسافة بين الإنسان عندنا وبين ثقافة أسلافه منقطعة ومشوهة، «فكل شيء عندنا أبتر»[2]، أعطوا شعوبنا قناعة بسوء ماضيها وحسن ماضي الآخرين، حتى وإن كان السلف الغربي يبيع المرأة بأقل من ثمن رباط الفرس، وإن كان سلفهم يحرم عليهم امتلاك أي ثروة، فهذه الأجيال الجديدة في مجتمعاتنا أصبحت غريبة على نفسها وعلى ثقافتها، تابعة للآخرين المحترمين، متبرئة من ذاتها الكريهة، وهنا ضمنوا نفسًا جوفاء تابعة فارغة، لديها استعداد لأن تكون مقلدة ومستقبلها بأيدي الطغاة الوكلاء والسماسرة.

ومما أشار إليه جلال ظاهرة عبادة المظاهر، وكأن المجتمع في زمنه أقل ثقة بمظهره، وقدم أرقامًا هائلة عن عدد الحلاقين في طهران، وتحدث عن غرق الشعب في السينما: «ليست شيئًا إلا وسيلة للإثارة الجنسية وقتل الوقت، فدور السينما عندنا لا هي تعلم ولا هي تساعد على التطور الفكري عند الناس، ويمكن أن تقول بجرأة إن السينما في هذا الجزء من العالم مجرد حصالة، حتى يصير المساهمون مليونيرات»[3]. وكما يشير تصبح

---

1 وجدت هذا التعبير في هذا الكتاب، ص 61، ولعل شايجان أخذ عنوان كتابه: **النفس المبتورة** من هذا الوصف.

2 ص 61.

3 ص 106.

السينما وما شابهها صانعة الفكر في المدن في زمنه. ومن بعد جلال بزمن كتب علي شريعتي في **العودة إلى الذات** كيف تغرق الأرياف الإيرانية في أصباغ الزينة، وأن القرويات أكثر استهلاكًا لأدوات الزينة من المتمدنات.

أصبحت البيوت في بعض بلاد العرب اليوم قبورًا، وديكورًا غاليًا مهجورًا، فلا يُطبخ فيها طعام ولا يُستقبل أصدقاء، فكل شيء يتم خارجها، الطعام واللقاء والزيارة والمتعة. وبعض الأسر لا ترى حتى أفرادها لا قبل النوم ولا بعده فهي مهاجع لعابرين، يذهبون ويشحنون رؤوسهم بكل وسيلة تصرفهم عن أي دور لهم في حياتهم، فضلًا عن التفكير في مصير أوطانهم.

حضرت مرة مؤتمرًا للفكر العربي في عاصمة عربية متغربة، ولأن المشرفين لم يستطيعوا جذب جمهور لحفلاتهم فقد ذهبوا لتأجير جمهور نسائي كبير، ولهم فعل ذلك للخلاص من لوم صاحب المؤتمر، ولكن لاحظت، وأنا قريب عهد بأميركا وأوروبا أن ملابس الحاضرات كانت أقرب إلى ملابس البغايا في الغرب! عري لا يصدق، وتملق سخيف، وتظاهر باللطافة لا علاقة له باللطافة، وأدركت أن كثيرًا منهن ضحايا للصور المنشورة في المجلات، ويتخيلن أن ملابس الصور والدعايات هي ملابس الغربيات.

كان سائق السيارة والعامل على الطاحون في القرية في مجتمعاتنا قبل خمسين أو ستين سنة من طبقة متميزة وتقدمية وتقنية استولت على تقانة الغرب، أما اليوم فالعامل في وسيلة إعلامية تافهة ومقدم الكلام السخيف والمرأة المتعرية والسمسارة المتكشفة هم علامة التطور في

المستعمرات، وحينها تدرك أن التخلف السابق كان يقدم للمجتمع خدمة نقل أو طحن حبوب، لكن التطور الأخير أكثر تخلفًا وبدائية وهامشية واستغلالًا للمجتمع، غير أن هؤلاء يكسبون أكثر من غيرهم، وهذا يدلك على حال المجتمع ومستقبله.

من شروط التعري المعاصر تجريد المرأة من لباسها، فمن واجبات التغرب أو مستلزماته منح الحرية الموهومة. يقول: «أعطينا المرأة حق الظهور في المجتمع فحسب، الظهور فحسب، أي الاستعراض، أي سحبنا المرأة وهي حافظة التقاليد والأسرة والنسل إلى التسيب، أخرجناها إلى الشارع، ودفعناها إلى الاستعراض والتسيب بحيث تزين شعرها ووجهها وتضع كل يوم على وجهها سحنة، درجة جديدة وتضيع في النهاية. وفي النهاية: أهناك عمل لها في المجتمع؟ شخصية؟ أبدًا. ولا غرض إلا زيادة أفواج المستهلكات للبودرة وأحمر الشفايف من إنتاج الغرب، وهذه صورة أخرى من الابتلاء بالتغرب. هذا الكلام عن المدن، وإلا فإن المرأة في العشيرة والقرية تحمل منذ قرون حمل الحياة أصلًا على كاهلها[1]. وفي الوقت نفسه تحرم من المشاركة في قرارات مجتمعها، فتكون وسيلة تلهية، تمامًا كالبرلمانات في المجتمعات المقهورة، مجرد مظاهر تزين أمام الخارج، لكنها مقموعة مجردة من التأثير ومعدة للإساءة للناس وليس الإحسان إليهم، فعنها تصدر قرارات رفع الضرائب ومعاقبة الشعب، تمامًا كما حال المرأة لا دور لها إلا إذا كانت خادمة في مؤسسة من مؤسسات التغريب. وأذكر أن أحد المتسلفين للغرب قال: لا بد من إفقار المجتمع بالضرائب

1 ص ص 68-69.

حتى تضطر كل أسرة إلى عمل الأبوين في الخارج، ومن ثمّ يتحقق إخراج كل النساء للعمل. وقد استطاع هؤلاء المتزلفون تحقيق بعض ما أرادوا من جعل المجتمع كله يعمل ويكد ولا يحصل كفايته.

التغرب وداء كراهية الحكومة

في عالمنا تسود كراهية متبادلة بين الشعب والحكومة[1]، لأسباب منها اعتبار الحكومة مفروضة من الخارج، أو مهمتها تسخير الشعب وثقافته للخارج، أو هي حكومة أوصياء صريحة عليهم، فكل مطالبها مكروهة وثقتهم بها ضعيفة أو معدومة، وشكهم في قراراتها دائم، فشرها إليهم واصل وخيرها لعدوهم نهر جار متواصل.

وكما يتجهون في إيران يتجه المقهورون إلى أمل تعجيل ظهور المنقذ المهدي أو صاحب الزمان ليخلصهم من شر طغاتهم، تجدهم في العالم السني يلهجون في جمعهم واجتماعاتهم بأن يبعث الله لهم إمامًا عادلًا يقيم الجهاد ويرفع الظلم عنهم ويقيم العدل بينهم، أو يسلون أنفسهم عن خسارة دنياهم بأن الآخرة دار جزاء، سينتصفون فيها، وأن الله سينتقم ممن ظلمهم ونهبهم في دنياهم، وفي هذا بعض الحق وبعض السلوة وشيء من تبرير العجز.

ثم إن الناس يلاحظون أن رفع شعارات الحكومة كالنشيد الوطني، يعمل على تعبيد الناس لمن يتوهمون عونه ونفعه، ويصنعون لهم أصنامًا

1 ص 70.

جديدة تذهب الاهتمام بالذات والقيم وحتى احتقار شعارات الصلاة، فهذه شعارات غريبة تكون بدائل لشعاراتهم الدينية، وإلغاء لمكان إيمانهم وميولهم واهتماماتهم. يقول: «وبمجرد الوصول للسنة السادسة الابتدائية يفر من المسجد، وبمجرد أن يذهب إلى السينما يضع الدين في زاوية النسيان.. [ويصبحون] لا دينيين... في حالة من عدم الاهتمام بالدين أصلًا، وهم معلقون في الفضاء لا تستقر أقدامهم على أي شيء، فلا يقين قط ولا إيمان قط... ولنصبح جميعًا لا مبالين، فلا دين عندنا، ولا إلحاد عندنا، ولا مستقبل لنا... اغتنم اللحظة، ومدارسنا تخرج موظفين كأنهم نقش على ماء، تخرج أرضيات مستعدة لقبول التغرب»[1]. فكأن الحكومات تضع شعارات وثنية في قلوب الطلاب تصرفهم عن دينهم، وينتهي الأمر بالشباب لا دين ولا ثقة بنفس ولا بوطن ولا بحكومة. ومما زاد الطين بِلّة انتشار المدارس الأجنبية في بلداننا، وهذه المدارس كفيلة بصناعة اغتراب جماعي عن البلاد وأهلها وأفكارها وثقافتها، كما تصنع لهم ولاء أجنبيًّا لا يعترف بسلطات البلاد ولا بهويتها وثقافتها، وتنشأ أجيال لا تحترم بلدانها ولا سلطاتها ولا ثقافتها، وفوق ذلك عديمة الولاء أو على الأقل منقوصة الولاء، تصنع أجيالًا هائمة في الهواء، تعبد مصدر الرزق فقط.

1 ص ص 71-72، في زمانه كان يتحدث عن ناس مستعدين للتغرب، مسكين يا جلال لم تشاهد ما حصل في بلاد العرب، فالطلاب في بعضها ليسوا مستعدين فقط، بل قد تغربوا وأصبحوا أشبه بثروة بشرية سائلة أو مائعة كالنفط والغاز لكن تتمنى التصدير أو هي في مكانها جاهزة لخدمة أي مستعمر، بل ويفتخر بخدمة الآخرين، لأنهم يرون أنهم يعطونهم مكانة وثروة ووجاهة اجتماعية يفقدونها لو عملوا لبلدهم.

وبهذا فإن الكثير من آراء جلال آل أحمد تستحق الاهتمام بها وتقدير سابقته وملاحظاته مثل أثر تحول طريق الحرير من عالمنا على التجارة والحياة، وتقدير سابقته في التحذير من الأثر السلبي للتصوف والقومية على مجتمعاتنا، وبناء الأسوار العظيمة بين الأمم الإسلامية[1]، فكانت الشركات الغربية لا تعترف بالحدود، والمصالح الغربية تخترق كل البلدان وتمنع حرية غيرها[2]، بل الغربي يسافر في بلداننا بكل سهولة وحرية كما تذهب الكوكاكولا والماكدونالدز مخترقة كل الحدود العربية والإسلامية. أما نحن فدون بلداننا أسوار الصين العظيمة ورعب السفر ومخاطر الاعتقالات والتوقيف على المنافذ، والحدود والسجون تحاصرنا وتهددنا، ولو كنا مروجين للمسيحية أو للخلاعة أو عملاء أو جواسيس لفتحت القصور وفرشت البسط الحمراء، بل ربما سخرت الطائرات والإعلام لخدمتنا. لقد أسرف المتنبي في مدح هؤلاء المتحكمين بقوله: «زمان ناسه ناس صغار». هل قرأتم للصحفيين وللمستشرقين وللجواسيس أخبار جولاتهم في بلداننا؟ كلهم كانوا يستقبلون استقبال الفاتحين حتى ولو شتموا مُستَقبلَيهم عند عودتهم، وما أكثر من يفعل ذلك.

---

1 يتعادون فيما بينهم ويجندون شعوبهم لحراسة الحدود مع جيرانهم، مع أنهم وجيرانهم يخضعون لحكومات استعمارية ترسخ الخلاف والعداء، وتبيع السلاح للطرفين، وتستعبد الجانبين باسم قومية ووطنية.

2 ضرب مثلًا من زمنه قصة اكتشاف تأثيث فندق هيلتون في هونج كونج من الصين الشعبية حين كانت علاقتها بأميركا متوترة قبل المصالحة، وأن استيراد الأثاث من الصين يخالف القوانين الأميركية، فأوقف المشروع. ص 129 هامش، تلك الشواهد عنده أصبحت في زماننا ساذجة وصغيرة، مقارنة بما يحدث، ويكفينا حصار العراق وليبيا مثالًا، ومحاصرة الشركات غير الغربية.

ومما ختم به كتابه من أمنيات زمانه قوله: «نحن نحتاج إلى بشر ذوي شخصية ومتخصصين ومنطلقين وأصوليين لا إلى رجال متغربين من ذلك النوع الذي ذكرته، ولا إلى بشر يعدون أجولة معلومات، أو يقومون بكل عمل ولا يقومون بشيء. كفانا بعد»[1]. لكن يا جلال لقد ذهب الشعب للحل فأمسك بالزمام متسلفون في بلدك من نوع مقابل للمتغربين، الذين شكوت من بلادتهم، وزادت قيود الحياة واشتد ظلامها، ومددوا الظلام لآفاق أوسع.

وربما نجد بعض الغربيين يحدد مصير دولنا وعلاقاتها في أثناء زيارته الخاطفة، ويوجه علاقاتها ومصيرها من جلسة خاصة، ثم يقول الكاتب: «أما حكوماتنا فقد قنعت فحسب بأن تكون حارسة حدود الشركات، ومن هنا ولنفس السبب فحكوماتنا تقوم بقمع الدين واللجوء إلى اللادينية والتفرنج»[2]. وفي مكان آخر يصف هذه النوعية من الناس: «المتغرب بالنسبة إلى الدين لا مبال تمامًا، لا يؤمن بأي شيء، لكنه لا يفتقد الإيمان بأي شيء تمامًا، هو إنسان التقاطي، يأكل خبزه بسعر زمنه، يستوي لديه كل شيء نفسه، وأن يمر حماره من فوق الجسر لا يعنيه بعدها وجود الجسر من عدم وجوده، لا إيمان لديه ولا هدف ولا اتجاه ولا عقيدة لا بالله ولا بالإنسانية، لا هو في هم تطور المجتمع أو في إسار الدين أو الإنسانية، بل إنه ليس لا ديني إنه غير مبال»[3].

---

1 ص 138.

2 ص 76.

3 ص 95.

تلك القومية التي كان يروج لها الشاه في زمنه ثم سيطرت لاحقًا على الثورة الإسلامية. وفي الكتاب تساءل عن مصير الصراع في إيران بين الإسلاميين والعلمانيين وأين سينتهي؟ وكأنه كان يشاهد صراعات الثوار بعد أكثر من خمسة عشر عامًا من كتابة كتابه[1].

1 ص 73 وهامش الصفحة للمترجم.

الملحق الرابع
النفس المبتورة

قد يتساءل قارئ: لماذا هذا الفصل والفصل الذي سبقه عن إيران؟ والسبب في ذلك أن المثقفين الإيرانيين سبقوا كثيرًا من البلاد الإسلامية في التواصل مع الغرب وفي نقده وفي التعثر به، ثم إن الترجمات من الفارسية والفرنسية إلى العربية متاحة بخلاف غيرها من اللغات، فلا أشك أن هناك جهودًا ربما أكثر في الألمانية والإسبانية، لكنها لا تمس الثقافة الإسلامية، وتناقش الفكر الغربي بعيون غربية. وهناك بعض الهنود من أصول مسلمة يكتبون عن التحولات والمعاناة في بلادهم مع الفكر الغازي، لكن من أعرف منهم يمثلون اليسار الهندي، مما يجعل جهودهم أشبه بنقد غربي-غربي لثقافة اليسار، فقلّت فائدته لنا، عدا المودودي[1].

1 مثل الماركسي المتشدد إعجاز أحمد، وكان قبله وربما أهم منه إقبال أحمد، وللأسف فإن أعمال لأخير القليلة لم تترجم إلى العربية، مع أنه شارك في جبهة التحرير الجزائرية، وعرض عليه الثوار بعد الانتصار منصبًا ولكنه فضل أن يبقى مفكرًا مستقلًّا، وعاش معظم أيامه الأخيرة في أميركا ومات في الباكستان عام 1999. وأعماله التي رأيت بالإنجليزية تدل=

كلمة عن الكتاب والكاتب

أولًا: يُعدُّ الكتاب من النصوص المهمة التي فضحت المتثاقفين المتغربين في إيران، وينطبق على أمثالهم في العالم العربي، علمًا أن الكتاب في ترجمته من الفرنسية إلى العربية تعرض لسوء الترجمة والأخطاء، بعضها في أصل الترجمة وبعضها في الطباعة، والمترجم لم يكن على مستوى النص، ولا يبدو أن النص العربي قد حرر أو روجع أصلًا[1].

داريوش شاجان[2] ولد عام 1935 ومات في طهران عام 2018، مفكر إيراني من أب أذري وأم جورجية، نشأ متفرنسًا، واهتم بالفلسفة والتصوف، أقام في فرنسا وسويسرا وأجاد عددًا من اللغات منها العربية والفارسية والفرنسية والألمانية، وكتب بالفرنسية، وكان له طموح في العالمية. ترجمت نصوصه إلى العربية من الفرنسية والفارسية، مثل هذا الكتاب الذي نعرض لبعض أفكاره التي تهمنا في هذا السياق، وله كتب مهمة أخرى منها: **ما الثورة الدينية** و**الحضارات التقليدية في مواجهة**

=على يقظة ووعي متقدم على مثقفين كثيرين معاصرين له، وهو من أهم من كشف عن الوجه العنصري لغاندي.

1 مما لاحظ أحدهم أن ترجمة الفلسفة كثيرًا ما تكون قاصرة عن نصوصها الأصلية، لأن المترجم غالبًا أقل قدرة فكرية من المؤلف فيظهر القصور في النص المنقول.

2 ويكتب بالعربية بعدة أشكال، مثل شاغان، وشايغان وشايكان.

الحداثة[1]، و**هوية بأربعين وجهًا**[2]، نصوص تدل على تمكن وقدرة نقدية متقدمة على العلمانيين التابعين في العالم الإسلامي من يسار ويمين، وقد سخر بهم وحط بعلم وقدرة من قدراتهم، وأنهم مجرد صور باهتة ضائعة بين ثقافتين. كما أن نقده للمتعلمنين يساوي نقده للإسلاميين، خاصة الثورة الإيرانية وأهلها. وكان من نقده للإسلاميين محاجَّته بأن من يقول إن الإسلام لا يخالف الحضارة المعاصرة إنما هذا فكر متعلمن، وهو يعني أن هؤلاء ضعاف أمام العلمانية والتغريب فيتوسلون إلى العلمانية بأن تقبلهم في عالمها. ولعله قد فاته أن في الخطاب تفصيلًا سوى ظاهره الذي ينتقده، وبسبب بعض نقده الجاد للتسلف أو التزلف إلى الغرب نقلت بعض رؤيته هنا.

أما التراث الثقافي الإيراني الناقد للغرب من متغربين سابقين أو مستمرين فقد أنتجوا أعمالًا ذات أهمية مما ترجم إلى العربية؛ وهذا أنتج هناك نشاطًا نقديًّا للغرب والتغريب قبل الثورة وبعدها، وربما ردة فعل حاسمة قاصمة لمسيرة التغريب التي فرضها الشاه، وهذا الرد الحاسم على التغريب هو مما ساعد على قيام الثورة الإسلامية، فقد كانت في تصرفاتها وتطرفاتها في تسلفها الإمامي ردًّا على التسلف الغربي، فاجتهدت الثورة الدينية المتسلفة أن تقضي على الطرف الآخر، أو على التسلف المتغرب المضاد، أو حاولت أن تقضي عليه، وهي تعيش خصمها داخلها وخارجها، ثم إن المتسلفين للغرب يستعدون للانقلاب على التسلف

1 ترجمة محمد الرحموني، دار الساقي، لندن، 1991.

2 ترجمة حيدر نجف، (بيروت: دار التنوير، 2016).

الإمامي. مما سبب تطرفًا متقابلًا ينتظر كل منهما القضاء على السلفية الأخرى. فهناك مجموعات التسلف الغربي تنتظر لحظة الانقلاب على السلفية الدينية المعادية لها؛ ولأن طبيعة التفكير واحدة، تقديس لسلف ما آتٍ من زمان أو مكان آخر، وكان من نماذج الاصطدام العنيف اصطدام التسلف الإمامي بالتسلف القومي للبعث عند صدام حسين وحزبه، وقد ساعدته قوى السلفية الغربية والشرقية للانتقام من التسلف الإمامي الديني.

ثانيًا: هناك أسباب أخرى لوضع هذين المقالين هنا في هذا الكتاب، وهي أن مجموعة من الإيرانيين اشتغلوا بالثقافة الغربية وتمكنوا منها، تمكنًا واعيًا، ودرسوها قبل الثورة الإيرانية وأجادوا فهمها وكتبوا عنها، وكتاباتهم في نقدها هي من أقوى ومن أجدر الكتابات التي يحتاج الناس إليها في عالمنا، ولهذا ختمت بهذين الفصلين عن التزلف بالتسلف، وهكذا تجد أن التسلف واحد في عمقه الفكري ومظاهره وأسبابه؛ فهو تقليد واقتراب من آخرين بعيدين ومحاولة فاشلة في الاندماج بهم.

ثالثًا: هذان الكتابان يساعدان على توضيح وتحقيق زيف التسلف الغربي الأعمى، سواء من قبل شخص كان شيوعيًّا ثم عاد (جلال آل أحمد إلى دينه وذاته ووطنه)، أو الآخر شايغان الذي عاش ردحًا طويلًا من حياته في الغرب، وتخلى عن كثير من مسلمات الغرب الفلسفية لأسباب عديدة، كانت قد كونت حصيلته ومواقفه الفكرية المخالفة لكثير من التسلفات الشرقية والغربية.

يرى شايغان أن المثقف الناقد لم ير النور في بلادنا إلى الآن، الأكثرون يعارضون السلطة، كما يقول. ثم إن الأفكار في رحلتها إلينا تعاني من سوء الترجمة وسوء الفهم، ونحن لم نفكر بذواتنا، فتهيمن السلطة التلفيقية. يقول: «هذه المفارقات جعلتنا أكثر تبعية واستلحاقًا بالغرب»[1]. وهو يقرب في بعض كلامه بين المتسلفين وبين المتفرنجين[2]. ونعلم أن العلمانية التي فرضها أتباع فرنسا على العالم الإسلامي كانت الأكثر تطرفًا واستتباعًا.

ثم يقول:

> إن المثقفين [معرضين][3] جدًّا للأخطار، نظرًا لوقوعهم بين نارين، نار التكنوقراطيين ونار علماء الدين. وهم، فوق ذلك، أولئك الذين يعانون بشدة من جراء كل الاختلالات التي تصيب عدواها خطر المعرفة، إنهم متفرنجون، على ذوقهم، من حيث مضمون خطابهم الفكروي المتميز، ويستفيدون من كل الأفكار غير المهضومة جيدًا التي تحوم في الهواء، وهم فوق ذلك مناضلون وناشطون جدًّا؛ إنهم المحركون الأشد حماسًا لكل التحريفات والتشويهات الفكروية[4]. إن صلفهم كمسلوخين

1 داريوش شايغان، **النفس المبتورة**، (لندن وبيروت: دار الساقي، 1991)، ص 147.

2 ص 150.

3 هكذا في النص، والصحيح «معرضون» خبر إن.

4 عن مثل هذه الكارثة من التبعية الفكرية التي أصابت العالم الإسلامي حدثت على المثقفين الثوريين في روسيا، فقد كانوا تلاميذ فاشلين لنهج اليسار الغربي، ولم يفهموا أفكاره وظروفه فقلدوها بتطرف وابتسار، كما شرح إيزايا برلين في أكثر من نصٍ له.

حيويين يجعل منهم أصحاب حقد وكراهية. ومن الممكن وضع كتاب كامل عن ظهور الكراهية لدى هذه الجماعة من المثقفين المحرومين المحبطين بوجه خاص، والكراهية صادرة عن حرمانات متنوعة: حرمانات متعلقة بالمنظومة التربوية، بمعرفة اللغات، بكونهم أجروا دراساتهم في الخارج، بالتفرنج العلماني للعادات والآداب، (كونهم عاشوا مثلًا في وسط غير ديني ميسور، حر، وتعاطوا مع الجنس الآخر بلا معوقات، إلخ)[1].

إن هذه المرارات المزمنة تسمم السلوك الذي يغدو عدائيًّا، بقدر ما يتخذ أكباش المحرقة أهدافًا له. وهذه ترتدي أشكالًا شتى: فهي إما أن تكون المنظومة القمعية العاملة لصالح الأجنبي، وإما أن تكون التكنوقراطيين، عملاء الإمبريالية والمستوطنين الداخليين المعارضين «لمعذبي الأرض»، وإما الشبيبة المذهبة والمتفسخة في الطبقات المتميزة، التي تحكي بلغة خاصة ملونة بكلمات أجنبية وبالتالي مرتهنة لثقافتها الخاصة، وإما، أخيرًا، الرقابة الخبيثة، والكلية الحضور، هذه الدابة الدنسة التي تلتهم كل البوارق الخلاقة[2].

عن ماذا يتحدث الرجل؟ إنه يكاد يصف ما يحدث الآن في الدول العربية بعد ثورة إيران بأكثر من خمسين سنة.

---

1 الأقواس في الأصل.

2 ص 153.

عقول المتزلفين المتسلفين

يسخر أحد المثقفين المعاصرين من أفكار المتعلمنين المعاصرين في الغرب، وأنها هي نفسها العقول المتخلفة القديمة في العصور الوسطى. يقول: «كان أجدادهم يقسمون بالقديس توما، وهم [أي العلمانيون المعاصرون] لا يحلفون إلا بماركس»[1]. ومثل هذه القصة ذكر مخرجٌ سوري وكان يتحدث عن زوار يساريين كانوا يأتون من العراق، بأنهم في أول الليل يتحدثون عن ماركس ولينين وفي آخر السهرة يعود موضوع الحديث إلى أن يكون عن الحسن والحسين. إنه العقل نفسه في تسلفه المتصلب الفاقد للوعي بنفسه وبزمنه، فيعيد تكرار المواقف القديمة، ويلبسها ألفاظًا وأسماء حديثة لتبهرك بظاهر معاصرتها بينما هي عقول قديمة مغلقة على نفس التفكير التقليدي الغافل عما يقول ويفعل.

إن الصلف والعنجهية والانغلاق سمة للمتسلفين من الطرفين، متسلفي الغرب أو متسلفي الشرق، وحين تفرغ من القراءة أو الاستماع لأحدهم تشعر بأنك أمام عقل مغلق، يستعين بكل ثقافة قديمة أو معاصرة لمزيد من الانغلاق، ثم يسم قوله بالانفتاح والتقدمية وربما بالجرأة ومحاورة الآخر، وهو لا يعرف كيف يتنازل عن فكرة مما أغلق عليها رأسه، وهذا ما جعل بيئتنا لا تنتج مفكرين ولا مقتحمين لحدود

1 **النفس المبتورة**، ص 89، نقلًا عن أوكتافيو باز.

الأيديولوجيات، وتبقى البيئة لا تفرح فيها بكتاب، ولا تنتظر عقلًا متجاوزًا إلا ما ندر.

أمسك الكاتب بحقيقة أخرى أيضًا وهي الإفلاس الفكري لمجموعة المثقفين المتغربين. يقول: «غالبًا ما يكونون عقيمين ولا يبدعون شيئًا أصيلًا»[1]. ويصف مرضهم بأنهم في مأزقين: أحدهما شعورهم بالتفوق على مجتمعهم، ووصمهم مجتمعهم بالظلامية «مع امتداح أصالتهم [هم] المظفرة»[2]. أما المأزق الثاني فهو أنهم «يحسون بدونية تجاه الغرب... ويعلمون حق العلم أنهم، رغم لغطهم الأصم، يعيشون على كاهل الحداثة، فالامتياز الذي يجنونه من جهة يخسرونه من جهة ثانية. وطموحهم السري، المكتوم والمكبوت غالبًا، هو أن يكونوا موضع اعتراف من العالم الحضاري المزعوم، وأن يرتفعوا إلى مصاف العالمية وأن يتجاوزوا الإقليمية الموهنة التي تخنقهم. من هنا هذا القلق الذي يخلق نوعًا من الخوف الانحباسي المزدوج؛ ومن هنا أيضًا الشعور بعدم فهمهم الذي يفضي إلى نوع من الصلافة الأكّالة، عندما يكون المرء متعجرفًا -وغالبًا ما يكون كذلك... فإنما يكونون مسلوبين ومغرّبين من الجانبين»[3]. ثم يشير إلى أن هذه الطائفة المتغربة لا مقبولة اجتماعيًّا ومنبوذة من مؤسسة المتدينين، وسلاحها النقد وبدونه لا وجود لها «فهي دون النقد تكون بلا دفاع... وهي لا تدهش التكنوقراطيين الذين يحتقرونها ويعدُّونها

1 المرجع نفسه، ص 154.

2 المرجع نفسه.

3 **النفس المبتورة**، ص 154.

إنتلجنسيا متخلفة، ولا تدهش أصحاب الدين على الرغم من إقامتهم تحالفات تكتيكية معها، إنما يطردونها وكأنها ليست من طينتهم. عمليًّا يبدو المثقفون عندنا كأنهم صليبيون ذاهبون إلى محاربة طواحين الهواء، أكثر مما يظهرون كمفكرين حكماء يتأملون بهدوء وراء طاولة عملهم»[1]. ثم يتهم مثقفي إيران العلمانيين بأنهم خارج ظروف بلادهم التاريخية، فلا يملكون التراجع ولا المعرفة، وأنهم يعانون من ثقافة منحرفة ويتهمهم بعمى البصر والبصيرة[2]. وهذا الواقع هو واقع أمثالهم في العالم العربي إن لم يكن حال قومنا أسوأ فيما نشاهد.

ثم يشير إلى مشكلة التواصل الثقافي حتى بين ماركس والسلالة الثقافية الغربية وفيها أرسطو[3]. ويمكن أن نعدَّ هذه إشارة لليتم والانقطاع الذي يعانيه المتسلفون للغرب في عالمنا، فلا هم متجذرون في الفكر الإسلامي ولا الغربي، بل مجموعات منبتة مقطوعة الجذور من الثقافتين، فكان لا بدَّ لها أن تتسلف بجهل للغرب وبجهل عميق لجذوره، فنجد مثلًا أن الغربي ينتقد الماركسية ويعدُّها تجذيرًا في الديانة اليهودية، مهما ظهرت علمانية، ويوثق ذلك[4]. كما يهاجم شايغان ما سمَّاه «حثالات نسخة ماركسية تقدم تفسيرات تبسيطية للأمور، على شكل باقات معارف»[5]. وإن ابتعدت

---

1 **النفس المبتورة**، ص ص 155–156.

2 **النفس المبتورة**، ص 157.

3 **النفس المبتورة**، ص 158.

4 لوسيو كوليتي، **أفول الماركسية**، ترجمة نظير جاهل، وسعود المولى، (بيروت: دار الأمالي، 1408هـ/ 1988م).

5 **النفس المبتورة**، ص 70.

ذهبت للثقافة اليونانية، أو جمعت من الشرق والغرب ما يؤيد حججها في نقد الرأسمالية، بينما الأتباع سيحزنهم أن دينهم الذي يتعصبون له لا يعرفون جذوره، خاصة لو كانت بعض الجذور استشراقية[1].

الترابط بين التسلف العلماني والحكومات المعاصرة

نرى في نقاشات وكتابات المتسلفين العلمانيين أحيانًا نقدًا للحكومات، خاصة اليساريين منهم، ولكن شهدنا ونشهد أن الأنظمة الدكتاتورية تعتمد عليهم تمامًا كما تعتمد على المتسلفين الدينيين، فالمتسلف العلماني وجه يحب الطغاة تقديمه للغرب مدللًا على حداثة النظام، ويحتاج النظام نفسه وجوهًا محلية توهم الشعب أن الحكومة تؤيد وجهة النظر الإسلامية وتحترمها أيضًا، بينما في الواقع أن الدكتاتوريين في العالم الثالث هم كيان آخر لا إسلامي ولا يساري، وفي غالب عالمنا نجد أن الغرب هو من اصطنعهم أو عيّنهم[2]، فإذا كانت المرحلة تحتاج تحقيق غاية فعلى الطرفين المتسلفين المتزلفين تحقيقها وتبريرها، فغاية الاستعمال واحدة وإن اختلفت طرق الاستخدام وغاياته.

في دولة عربية قال لي أحدهم إن أحد متنفذي القوم في بلده يجمع المشايخ بعد المغرب، يربط توقيت الاجتماع بالفراغ من الصلاة، فيأتون ويكون

1 صدرت أبحاث تربط الماركسية بالقرامطة من حيث شيوعية المال والنساء والراية الحمراء والاعتماد على الصعاليك الخارجين على النظام العام بما فيه الدين والحكومة.

2 كلنا يذكر الضغوط الأميركية على مرسي الرئيس المنتخب في مصر ليعين البرادعي رئيسًا للوزراء في زمنه، ولما أصر مرسي على رفض تعيينه كان قراره هذا مما عجل بمصيره وبدفن الديمقراطية المصرية الوليدة.

الحديث عن الدين والأعمال الخيرية وما أشبه ذلك، بحيث يعطي لنفسه صورة المتدين التقي لهؤلاء المغفلين، ثم يقدم لهم عشاء دسمًا في أجواء ذكر الله والتسبيح والاستغفار، ثم يخرجون من عنده وهم يلهجون بامتداح تدينه وتقواه والدعاء له. بعد ذلك يخرجون ويأتي إلى مجلسه من بعدهم جماعة من طينته من العلمانيين من يمين ويسار وأحيانًا مجرد متخلعين ممسوخين بلا فكر، فيكون المجال رحبًا لتشريح أهل المجلس السابق، والسخرية من كل ما يعبر عن الدين، وهذه المجموعة هي المسماة من قبل المجموعة الأولى بحثالة المجتمع، وهؤلاء يصفون المتدينين بالظلاميين والمتخلفين. وفي هذا المجلس الثاني تظهر شعائر التخلص من قيم الدين، وقد تدور الخمور والخلاعة، ويتحدثون عن طرق الخلاص من تأثير المجموعة الأولى في المجتمع. كلا هذين الطرفين برعاية الدكتاتور نفسه وحزبه، وكلتا المجموعتين وجهان لعملة واحدة.

ذكر لي راوي القصة أن المجموعتين مختلفتان، بينما صاحب القصر غفل عن تغيير فريق الطعام الذي كان يشاهد أو يراقب بصمت التنافر بين المجموعات، وربما فسرها بنفاق أو استغفال. والذي يبدو أن الطرفين ثقافتهما واحدة تسلف مغرق وغفلة عن الحقيقة، فكلا الطرفين مستأجر لخدمة هدف واحد وهو بقاء شرعية هذه السلطة بالتظاهر للخصمين أن كلًّا منهما يمثل الشرعية؛ فترى الطرفين المتسلفين غافلَيْن ومستخدمَيْن لغير مصلحة الشعب، ويساعدان في غرقه في الجهل والفقر والتبعية بحيث يعلمان أو لا يعلمان.

ثم حقيقة أخرى يعرفها مثقفون كثيرون إسلاميون وعلمانيون، وهي أن السلطات تقيم دائمًا توترًا ظاهرًا أو خفيًّا بين تيارات المجتمع، لتبقي بعضهم مشغولًا ببعض، أو لتتظاهر لكل طرف أنها معه، وأن الظروف المحلية أو العالمية لا تسمح بنقده. فيتنعم المتسلط بنفوذ مبرر عند كل جهة، وتلك حقيقة مكرورة بسماجة.

التفرنج تسلف متزلف

نعى الكاتب على المثقفين في إيران تفرنجهم، فهم منتمون إلى الغرب، ويعانون من السلفية الدينية للمشايخ، ومن حكومة الشاه التي جعلتهم مجرد موظفين بيروقراطيين، وأدت هذه المصائب الثقافية إلى ما وصل حالهم إليه زمن الثورة، فمنهم شيوعيون تخيلوا أن الثورة قد قامت لمصلحتهم فقتلهم المحافظون، غالب اليساريين والعلمانيين هربوا إلى الغرب. وإن ما حصل في إيران أنموذج لمصير المثقف العالم ثالثي، فلا من تسلف وتزلف إليهم أنقذوه، ولا بلده راضٍ عنه، ويبدو أن هذه مرحلة ثقافية تاريخية في بلداننا وقد تستمر بوجود عامل مقيم آخر وهو الإرهاب الصهيوني، فلم يزل قادرًا على اصطناع أتباع، وما دام الغرب جذابًا لأتباعه في عالمنا، فلا نتخيل نهاية سريعة للمتسلفين المتزلفين له. كما أن وجود المؤسسات الدينية والأحزاب المتشددة السلفية ضد هؤلاء المتسلفين المضادين لها قد يبقي المجتمع مرهقًا بالصراع بين سلفيتين، كل منهما تأبى الانتماء للحاضر وللبلاد التي هي فيها، فالمتغرب يجرها لسلفية غربية والمتسلف الإسلامي يجرها للتاريخ، ولا بدَّ من حل يصنع في عالمنا لا ينتمي إلى أي السلفيتين.

وقد واجه المثقفون المتسلفون للغرب في إيران مأساة يشرحها شايغان بأن المثقفين أولئك فقدوا خصمًا كان يعطيهم مشروعية بنقده أو بالعمل معه، ثم يقول عنهم إنهم: «في نظر النظام الإسلامي، كل المثقفين كانوا عملاء للنظام القديم، أو أسوأ من ذلك بمنزلة قاذورات الغرب الفاسد التي لا يمكن استردادها»[1].

التعلق بالزعماء

الظاهرة التي شهدها العالم العربي زمن عبد الناصر وشهدتها إيران زمن الخميني، بمقدارٍ ما، هي تعبير عن الحالة النفسية للشعوب وأشواقها للاستقلال والوحدة زمن عبد الناصر، والتضامن مع الشرق الروسي ضد الغرب الأميركي، وتكررت عند الإيرانيين في شخصية الخميني، شوقًا للخلاص من تبعية الشاه ومن غربة الدين، والتخلص من الهيمنة القاسية للعلمنة الشاهانية، دفعتهم هذه الظروف إلى التماس الفرج في الشخصية الجديدة، ومثلها التعلق الحزبي والشخصي بأشخاص وترك المبادئ أو نسيانها في غمرة الاحتفال بالفرد المنقذ، لعل هذا يفسر ذلك السلوك وذلك التعلق بتلك الشخصيات، وكذا التعلق بالحلول الغريبة، كما كانت المجموعات العراقية المتغربة التي غزت العراق على الدبابات الأميركية، تدل تلك الأحوال والتطرفات «على عدم نضوج نفسي يدل على حاجة اندماجية؛ لأنّ متخلفًا يخشى العزلة وخطر إعادة النظر فينكمش على نفسه في ملاذ آمن»[2].

1 **النفس المبتورة**، ص 160.

2 **النفس المبتورة**، ص 166.

القدوة بديلًا لقدسية الزعيم أو الإمام

إذا كان التعلق بالأشخاص مشكلة كما ذكرت سابقًا فإن هناك حلولًا أخرى لهذه المأساة، فإن التعلق بأشخاص فيه جانب فطري إنساني لا يستطيع منظر أن يلغيه من عقول البشر وعواطفهم، ولذا كان مبدأ الاقتداء مبدأ بديلًا للفناء في الأشخاص. ويقوم هذا المبدأ على القدرة على الانتقاء من الشخص ومن الفكر ومن الزمن، بشرط أول يجب قبوله وهو أن من ستقتدي به هو إنسان، له عيوب ومحاسن وصواب وخطأ، وأنت قادر أو يجب أن تكون قادرًا على الاختيار من سلوكه ما يناسب حاجتك منه، فعندما تستحضر الخطأ والصواب في الشخص القدوة فإن ذلك يفتح في ذهنك آلية للمشاركة في الحكم على الصواب والخطأ، بحيث لا ينساق الإنسان انسياقًا أعمى نحو شخص أو قضية أو أي موقف بلا فحص لما هو مقدم عليه.

وفي القرآن عرض لقدوات كثيرة وكثيرًا ما يرتبط المدح بذكر العيوب أو النواقص أو الأخطاء، بدءًا من آدم الذي قال عنه القرآن إنه: «فَنسِيَ ولم نجد له عزمًا»[1]، أو الحديث عن قصة موسى وأخذه برأس أخيه، أو لوم الرسول صلى الله عليه وسلم لموقفه من الأعمى في سورة عبس: «عبس وتولى أن جاءه الأعمى»، أو قصة إبراهيم والأحاديث التي ذكرت أنه

1 سورة طه، من آية 115.

كذب ثلاث كذبات فأعرض عن الشفاعة للناس[1]، أو نقص المسيح عن اكتمال شخصيته في الأطوار البشرية المختلفة للناس ونهاية مشروعه المبكر في عمره، بينما تكتمل الصورة للشخص في شتى أطواره في رسولنا صلى الله عليه وسلم أبًا وزوجًا وقائدًا ومحاربًا وقاضيًا وإنسانًا. ونرى بعض علماء الإسلام قاموا بتأسيس فكرة خطيرة في عدم الاندماج الكامل مع الأخبار، فبالغوا في وجود خصوصية له عن الناس، وقاموا بتأسيس قاعدة الفرق بين العادة وبين العبادة وقاعدة التنزيه، فهناك ما يفعله تنزهًا وليس ملزمًا لأحد غيره، وغيرها، وكل أخبار الاقتداء تصب في موضوع واحد وهو ألَّا ينساق الإنسان لما لا يدرك أبعاده.

أزمة هوية المتسلف للغرب

يرى مؤلف الكتاب أن العلماني المتغرب يعاني من مشكلة فكرية؛ فهو يستورد أفكارًا ويتبناها ويتحمس لها وهو لم يدرس تلك الأفكار ولم يفهمها، ثم هو يحاول قدر طاقته الخلاص من هويته، وفي الوقت نفسه يرتهن لثقافة أو لهوية أخرى. «فهم يضعون نقصًا في مواجهة نقص آخر ويتلاعبون بهوية غامضة مقابل ارتهان غامض أيضًا، ويقايضون هذه الهوية بذلك الارتهان، إنما يبقون معلقين في غوامض التاريخ [يعانون] من ثقافة ملفقة... لا تنتج شيئًا صلبًا»[2].

1 صحيح البخاري رقم (3358).

2 **النفس المبتورة**، ص 160.

ومثل هذه الأزمة الهوياتية حدثت في العالم العربي، فمثلًا تعلق قوم بتاريخ بابل وآشور، وآخرون بتاريخ الفراعنة، وفي الشام بعقدة أوقاريت والفينيقيين، وآخرون بتاريخ قديم للأمازيغ، وكانت طرق الاستعادة والاستحضار لتلك القصص الماضية معاناة صعبة وغامضة في عرضها وفي معلوماتها وفي الأشكال والحروف التي التزموا بها، كانت أحيانًا مثيرة للضحك كما كتب عبد الله العروي[1]، وأحيانًا مثيرة للسخط كما رد عليهم محمود شاكر[2]، ولكن كل تلك الأحافير عن هوية تعني الهروب من الذات أو من الحاضر أو من الماضي إلى حالات عمياء غير معروفة للهاربين فضلًا عن المستهدفين. وإذا كان الإسلاميون يزعمون بوضوح هويتهم، لكن فيها تفاصيل وعصور وأشكال وأفكار مما يجعلهم يجدون أنفسهم في صراع وخلاف وغموض آخر. صحيح أنهم أكثر انسجامًا ووضوحًا في خطاب هويتهم من غيرهم، لكن ليس الهدف أن تكون الهوية مأوى وقيدًا بمقدار ما يجب أن تكون مساعدة على الخلاص من قيودها، وتساعد في بناء تحرير الإنسان وفتح أفق جديد وليس استعادة لقديم تمت تقسيته وتيبيسه عبر القرون فيفقد المرونة المستقبلية، ويكون سجنًا للعقل وللروح.

قبل النهاية

بعض الأذكياء يكتبون ويتحدثون واليأس من المستقبل مسيطر عليهم، وهذا التوجه له مبرراته، ولكن ليست هذه فطرة البشر ولا قدرية تاريخية

1 له تعليقات طريفة بشأن تعلق بعضهم بكتابة لغة أمازيغية يحاولون إيجاد أبجديتها من عدم.

2 في كتابه **رسالة في الطريق إلى ثقافتنا**.

ملزمة، فالطريق للمستقبل الإسلامي لن يكون بالحرص على الاندماج في ماضينا، ولا الاندماج في ماضي غيرنا كالغرب أو الصين ولا حاضر أي أحد آخر. بل بناء مستقبلنا ببعث عناصر القوة التي نراها فيه من وسائل تبني مستقبلنا، كما نرصد من الآخرين عناصر القوة التي يمكن أن تعيننا في بناء مستقبلنا، ليس ارتهانًا لماضي أحد ولو كان ماضينا، ولا تجاهلًا لعناصر بناءة ولو كانت من غير الزمان والمكان.

أما لماذا نتخلص من ضغط زمانين محددين؟ فلبعد الزمانين واختلاف الثقافتين، وكوننا مختلفين زمانًا وفكرًا عن الطرفين، ومحاولة بعث الماضي أو استنبات الآخر ستبقى محاولة في غاية الصعوبة، فليس لنا إلا أن نسير في طريق جديد لنا نحن نفكر فيه ونصلحه ونتجاوز عيوب الماضي وعيوب الآخر. قد يكون هذا طرحًا مثاليًّا أو تلفيقيًّا كما يمكن أن يُرد عليه، إنما علينا أن نفكر باستقلال في مصيرنا، وعلى الطرفين المتسلفين الخلاص من قيودهما والبحث عن طريق آخر، وهذا أفضل الحلول التي تحررنا من ثقافة العبودية والتقليد لأي من الطرفين، وتزرع في نفوسنا حرية السير للأمام، وحتى التقليد يصبح من الحرية أو قائمًا على حرية التعامل معه، تمامًا كحرية الإبداع، فعقل الإنسان فيه حس كبير ينحو نحو التقليد، فلنبق على هذا الحنين لا نصادمه ولا نستسلم له، وهو أيضًا نفس الحال مع المتسلف للغرب، لن نرفض هواه وتركيب عقله ولا نستسلم له، وليس هذا تلفيقًا كما قد يحاجج بعضهم، ولكن طبيعة البدائل والتغيير في الذهن البشري قائمة على النقد ومن ثمّ التطوير والتحوير المستمرين، يساعدها على قطيعة مع الماضي وبناء الجديد. فقد رأينا العربات القديمة التي تجرها الخيول أو الحمير تطورت وتمت القطيعة في الاستخدام العام، لكن رغم

كل تقدم بقيت منها أشكال واستعراضات تعبر عن الحنين والذكرى، فلا يحسن بنا أن نهتم بالقضاء عليها ولا أن نحرص على بقائها، وفي الأفكار والنظم مثل ذلك.

هل صنعت السلفيتان تخلفًا عندنا؟

لا أود أن أقول إن السلفية الإسلامية صنعت كل هذا التخلف، ولا أن الغرب فعل بنا ذلك أيضًا، فإلقاء التهم على الآخرين نوع خلاص من المسؤولية، لكن علينا أن نقول إن كلتا السلفيتين صنعتا تحديًا كبيرًا في مجتمعاتنا، فكلما شئنا البحث والعودة للسلفية الإسلامية تحدانا التسلف الغربي، وكلما اتجهنا نحو التغرب والاندماج في حضارة الآخرين منعنا سلفيونا ومنعنا الغرب نفسه من التطور، وحاول أن يحافظ علينا أسواقًا لمصنوعاته، ومقلدين وأتباعًا باسم التسلف له والعلاقة معه وأنه هو التطور الذي لا يناله من قلده، فكأننا مربوطون ومتوترون بين هذين العالمين. علينا تحرير أنفسنا من هواجس تقليد السلف ومن هواجس تقليد الغرب، ومن تجارب عالمنا، فإن كل ثورة سياسية أو مجتمعية تعيش بهاجس أحد التوجهين يذلها توجه مضاد.

خذ مثلًا القومية والبعثية، واليسارية عمومًا، واليمين الغربي، وهي أفكار غربية حققت ثورات وحكمًا شموليًّا في عالمنا، فكانت مشغولة ومهجوسة بالحرب على الإسلام، لأنه الضد البديل لتغريبها، تخاف منه ومن عودته ومن قوته، وكان همها الأعظم كيف تقيده وتسجن علماءه وتعيق أي نشاط له بأسلوب غير قتالي، في البدء، ثم تطوَّر الأمر لسجن

الإسلاميين ثم قتلهم وتهجيرهم، وسادت سياسة الاغتيال والمطاردة والتهجير ممارسة قومية بعثية علمانية دائمة، مع إلصاق كل الأوصاف السيئة بالإسلاميين، ثم لم تستطع هذه العلمانية تقديم شيء ذي قيمة لمجتمعاتنا، إلا موضوع إنجاز تعريب ظهر للجميع أنه كان مفيدًا؛ ليس لأحد أن ينكر ذلك. واستطاعت القومية العربية رغم سيئاتها ربط العالم العربي بهوية لغوية واحدة، وإن كان التطرف القومي شرعتها، لكن التعريب كان قشة نجاح في كومة من الفشل، علمًا أن التطرف القومي سبب صراعًا ونفرة لمن يرى أن عرقه ليس عربيًّا.

لا ينكر الإسلام تعدد الأعراق ولا ينكر وجودها وأثرها، لكنه يجعل الجميع في دائرة اللغة لمن شاءها وجزءًا من الكيان الإسلامي الواسع لمن لم يردها ثقافة ولا لغة عامة، فحرية تفكيره ولغته لا بدَّ أن تكون محترمة. ثم إن اللغة العربية الجامعة بشتى مستوياتها حين تنتشر في المجال العام وتكون هي اللغة العالمة، فإنها لا تختزل حقوق الناس في الحديث والتعامل بلغات أو لهجات أخرى، وذلك ما تدرج عليه كل الأمم التي تحترم نفسها دون إكراه. وقد سببت العقائد والممارسات القومية العربية نبذًا للمسلمين المتحدثين بالعربية، وهذا من تناقضات القومية مع الإسلام، فنبذت القومية الشعوب المجاورة الناطقة بالعربية؛ ففقدنا بسبب هذه العقائد الوافدة التواصل والمودة والمشاركة في قضايا عديدة مشتركة، وسببت تصلبًا عنصريًّا قامت عليه جامعة الدول العربية، فأوقفنا الإنجليز على حدود مصالحهم بحجة القومية، وتم تنحية المجال الفرنسي في إفريقيا وإبعاده عن مجاله الطبيعي والتاريخي.

أما الإسلاميون فلم يسمح لهم الغرب ولا المتسلفون للغرب بالوجود كحكومات، ولكن خطاب الإسلاميين عانى من توتر مستمر مع خصومهم، وغاب عنهم هم نقد أنفسهم (النقد الذاتي) إلا ما ندر، غير أن القهر بالقوة والقتل ظل منصبًّا عليهم غالبًا؛ فخرج منهم أحيانًا أقليات شديدة العداء للجميع، ومن نقمتهم كفّر هؤلاء الجميع ودمروا أنفسهم، قبل أن يخرج بأسُهم لخصومهم، بل جعلوا المسلمين خصمًا يجابه نيرانهم أولًا، فأحيوا سنة الخوارج، وكانوا أقرب لمن يمكن أن نصفه بأنه يجهل ما لا يريد ولا يستطيع توصيف ما يريد. كما لا يصح أن نقول إن تجربة داعش إسلامية وإن تعلقت بذلك؛ لأن عموم الإسلاميين بمختلف مدارسهم كانوا ضدها، كما لم يسمح لها بكشف تام لمشروعها ولم تستقر حتى نعرف ما عندها، وإن كان ما انكشف من مشروعها أقرب إلى سلوك الخوارج القدماء في معظم أحوالها، ثم تهمة أخرى يقتنع بها الغالبية في عالمنا أنها كانت صناعة غربية أو ذريعة تبرر للغرب استباحة العالم الإسلامي، وتشويه دينه وحججه، ولضم الرأي العام في العالم الإسلامي وغيره إلى خطاب الغرب.

أما الجواب عن السؤال السابق في العنوان فنعم، ذلك أن هذا الشد والجذب بين الطرفين لم يسمح لنا باستقرار ولا بلحظة نفكر فيها في مستقبلنا ومصيرنا، فلو شك الغرب في ولائنا قاتلنا، أو أرسل زبانيته بانقلاب أو حرب أو حصار يدعمه ليغلق أبواب الرزق والحياة، ويوكل عملاءه ليسيطروا على مجتمعاتنا أو يستغل كل فرصة لاغتيال مستقبلنا، وتشويه سمعة وعمل من لا ينطلق من منطلقاتهم ولا يؤيد إرهابهم، إذ يلزم أن يبقى هذا الجسد الإسلامي مشلولًا خاضعًا ذليلًا تابعًا، ومن تمرد

إن كان دولة فرض عليها الحصار، وقام بتدمير اقتصادها وتهديد أمنها، وإن كان فردًا ضاقت في وجهه البسيطة وحاصرته الحدود، بينما من يحتله له حق التجول في جميع المستعمرات كما يريد. ثم إن الغربي يرى أن من حقه أن ينصب قواعده العسكرية والقاتلة في مجتمعاتنا، وكلنا سمعنا تصريح الرئيس الأميركي بايدن يقول: «لو أن إسرائيل لم توجد لأوجدناها». فضبط المجتمع الإسلامي وإبقاؤه مزرعة غربية حاجة ضرورية للغرب، وتنصيب من يهيمن على الشعوب ويذلهم لمصلحتهم من الشعوب نفسها، وزرع قلعة عسكرية صهيونية في قلبه، كخنجر في خاصرته تطعنه باستمرار وتمزق أحشاءه كلما استيقظ، وتهيمن عليه وتذله وتستعبده، أساس ضروري لاستمرار الهيمنة عليه، تستهلك موارده وتدمر روحه وتمنع وحدته، وتقهر روح النهوض فيه.

ومن هذا فإن الخلاص من ركود التجربتين شرط لسلوك طريق جديد، لا يرتهن للقوة ولا التبعية الغربية، ولا يرهن نفسه لتقليد إسلامي بعيد عن الواقع مهما تخيلنا أننا نعيده فلن يكون المستقبل كما كان الماضي، إذ إن شروط الزمان والمكان والفكر ليست بيد من تشهّى ذلك.

ثم إني متفائل بهذا الصراع بين الأطراف؛ لأنه سيكشف للقادمين محاسن ومساوئ الطرفين، وسوف يغني التفكير القادم بالمحاولات الصائبة والخاطئة، فلن يؤدي هذا الصراع بين السلفيتين إلا بولادة موازنٍ جديد، وذات جديدة تحيي وتعيد استنبات ما تجمد وركد عبر قرون، فتترك وتنتقي، تقبل وتهجر من الجانبين من السلفيتين ومن حاضرهما، وتصنع لها ثقافة جديدة، لا نستطيع أن نحددها، ولكنا نرجو أن تولد،

فكما نقول هنا في هذا الكتاب بأن السلفيتين لا تنقذان، فلا شك أن الذات الجديدة القادمة سوف تبني ذاتًا جديدة تأخذ وتدع وتبدع، ونعلم أن التجربة والمرونة والبحث المنفتح الدائم سيصنع طريقًا صالحًا.

إن التجاوز للسلفيتين ضروري جدًّا لتتيسر المغامرة خارجهما، وأخذهما خبرتين لا تحكمان، ولا نقبل بمن يسرف في ارتهانه لأي منهما، فهو لن يوصلنا إلى شيء إلا إلى حقد وتنافر محلي ضد أحد الأطراف، ويجدد معركة محلية إثر أخرى لا نخرج منها بشيء.

سحق المجتمع والمعتدلين بين التسلفين

إن من أهم نتائج فوز إحدى السلفيتين هو سحق المجتمع، سحق الاعتدال، لأنه لا يتعصب لأي من السلفيتين. رأينا كيف قام المتسلفون للغرب بقتل روح الحرية والمبادرة والنضال في مجتمعاتنا، رأينا كيف قتل هؤلاء المتطرفون المتسلفون للغرب وكيف حرصوا على الإبادة الجماعية للمجتمع المتسلف الإسلامي المضاد، ويمكننا أن نرى في الشام والعراق مخزنًا من التجارب وكذا في مصر والسودان وليبيا والجزائر وإيران. هذا السحق المتبادل والتهم بالتبعية والخيانة ينفذها الطرفان بكل صفاقة، كلٌّ ضد الآخر، أما الوسط البريء فهو متهم حتى يعلن عن موقف موال للطغيان الحاكم، وحينها يصبح هو مسار العدل، وإذا تجنبنا نموذج الثورة الإيرانية فإن في الربيع العربي كان دليلًا على إمكان انتصار ثقافة عامة معتدلة غير متطرفة، غير أن هذا الربيع نقصته وسيلة حماية ورعاية قوية تصونه من انتفاض العملاء واستعادتهم للقيادة. إن نقص الحماية الذاتية

في تجربة الربيع العربي قد أسلم منطقتنا مرة أخرى لأعدائها، وصوروا للشعوب أن مأواها هم العساكر حماة التسلف للغرب. حقًّا إن الربيع العربي كشف صراع الثقافتين المتسلفتين، ولجأ المتسلفون للغرب إلى سلاحه فاستعادوا قوتهم وقهرهم، وفشلت الشعوب البريئة التي تعرف ما يضرها ولا تعرف كيف تحمي مستقبلها، وسلفيتها خسرت أيضًا معها فبقي التطرف التسلفي الغربي صاحب الأمر كما كان، تغيرت الوجوه ولم تتغير التوجهات ولا الحقائق، بل ربما زاد الخناق في مناطق أخرى والشك في بلدان جعلوها تندم حتى على فسادها القديم. وشعوب تعرضت للغدر والقتل لأنها طالبت بالحرية، أو ظهر على أرضها بديل إسلامي للتابع الغربي. حجة النقاش هنا أن التسلف الغربي هو القوي والنافذ المحمي بالدول الغربية التي انتصرت في الحرب العالمية الأولى والثانية ورعت هذه الانحرافات ورسختها، وبجيوشها التي سميت كذبًا بجيوشنا، مولتها وأمنتها لتغتال روح الاستقلال والحرية في مستعمراتها، ثم تجري لسلفييها انتخابات وأحيانًا انقلابات لتغيير الوجوه حسب الحاجة.

إن هذه المجتمعات وهذه العقول الخائفة والمهاجرة والسلبية لا بدّ أن تعود للفاعلية، وأن تشارك في صناعة حياة حقيقية بديلة. نحن نرى احتفال المتسلفين الغربيين بالتوجهات العلمانية المتوحشة في بلاد المسلمين، ونشاهد الاحتفالات بسجن المتسلفين الإسلاميين وبعضهم أكثر اعتدالًا، ولكن عمى التعصب التسلفي الغربي لا يسمح لنفسه برؤية منطقة مشتركة بين الشعب والوصي علينا، «المسمى حاكمًا»، ولا بين التسلف الغربي والتسلف الإسلامي، ولا يستطيع استحداث برنامج

إصلاح من أي نوع. فأين غابت شعارات الرجولة والفروسية عن ورثة شهامة العربي ونجدته. لقد مات ضميره فأحرق الأحرار المحتجين في الميادين، وامتلأت السجون بالأحرار، وضاقت قصور الحكم بالأتباع الذين داسوا كرامة الأمة وأهانوها، فكانت الإهانة والتبعية عقيدة وسلوكًا، وقد يرمون على هوانهم ألقاب التحرير والتطور والتمدن، بينما هم قهروا البلاد والعباد بالرعب والصمت عن جرائمهم وانحلالهم وعبوديتهم المعلنة لسلف غربي مصطنع صنعه جهلهم وأميتهم. لقد أمات المتسلفون للغرب الجدد المروءة والكرامة والحمية، وغرروا بأنفسهم وبالمقهورين من شعوبهم حتى بلغ من فساد الحياة أن تجد من يرفع صوته محتفلًا بمهانته، ويفتخر بما يصب من الأذى على المتسلف الإسلامي، الذي لا ينصره محتل ولا مستعمر، فللضعيف في بلداننا القهر والقتل والتعيير، وللسيد البعيد ما فوق الأرض وما تحتها.

هذا واقع السحق المتبادل والمواجهات غير الشريفة في مجتمعاتنا، حيث لا قيم تُرعى ولا أحزاب ولا أفكار ذات قيمة إلا قيمة الانحطاط والدعوة إليه من الجانبين. هذه الثقافة المتضادة لا تعد مجتمعاتها بخير، ما دامت تؤمن بهذا التوتر وتوقد الخلاف وتلجأ إلى خصوم الرأي العام لصناعة رأي عام متطرف ضد أي من السلفيتين.

إن تمادي أي متسلف متزلف للماضي أو للطرف الآخر الغربي سوف يبني قوة خصمه ويمنحه الأدوات التي تهدم خطابه هو، رأينا ذلك وعاصرناه وحاولنا وحاول قوم أسبق منا في كف الأذى عن الطرف المقهور أحيانًا، لكن من يرى نفسه منتصرًا أو منصورًا بقوة أخرى يصنع

عماه بذاته، ويغري عدوه بالانتقام. كما حاولنا التفكير فكانوا يروننا مثبطين متهاونين تاركين لأصول ديننا وتقاليد التراث، وكانوا غارقين في التزلف للأقوياء وهم من طينة خصومهم، ولكن قومنا ما كانوا يعلمون وكأن أشق ما يمكن أن يحدث لهم هو محاولة إصلاح خطابهم، فالأمور سهلة عندهم إلا التخلي عن تقاليدهم الميتة التي وجدوا أنفسهم فيها، ولو لم يكن لها دليل عند سلف ولا خلف، والنداء السابق لمن تخيل انتصار الأمس يجب أن يقال للمغرورين بالنصر اليوم، إنكم خاسرون باحتفالكم، فسوف تصبحون عرايا في المجتمع مستقبلًا ومسخوطًا عليكم ومتهمين بكل عمل وضيع. ولذا فإن صناعة برنامج عام ينفع ولا يضر ويجمع ولا يفرق هو المصير الصواب.

إن رؤية شيخ يُلزم الناس بتطويل اللحية أو يطارد المجتمع لأدنى مخالفة، وكذا رؤية مثقف يفتخر بتوطين التعري والتغريب وبخلع الحجاب أو الاحتفال بأغنية تسخر من الإسلام، وجهان لعملة واحدة، تشدد شكلي منقوص، وتضاد وتصادم يؤسس لصراع دائم يدمر الروح ويذل الجميع، فلا الثقافة المقدسة محمية ولا الذات محترمة ولا الخلاف الشريف مسموح به؛ ويصبح التشدد التسلفي التغريبي قمعًا مشروعًا مفروضًا بالقوة التغريبية، كما خصمه التسلف الديني الشكلي يحمل خطابًا بديلًا يرى نفسه منقذًا ولديه مشروع حماية المجتمع والدين من أعدائه، وتبقى مجتمعاتنا في دوامة صراع السلفيتين.

يسعى كلا المتسلفين إلى السيطرة على المجتمع، وكل منهما يبرر ويشرعن وصوله بأنه هو الخادم لإحدى السلفيتين، وهو رسولها وممثلها

في البلاد، ويُجمع الطرفان على فساد الواقع السياسي. يرى شايغان أن المتدينين والحداثيين مجمعون أيضًا على عنصر ثقافي آخر وهو الحكم على مجتمعهم بالتأخر[1]، فيجرونه بالتعيير إلى تقدم متنافر.

1 **النفس المبتورة**، ص 200.

خاتمة

إننا نعرف بعض شروط الخلاص من هيمنة السلفيتين. وبالرغم من رؤيتنا للحل لكننا نجد صعوبة في العمل له؛ فأطراف التسلف ترى أنها تملك الماضي والمستقبل بين عالم السلفيتين، علمًا أن كلتيهما فكرتان ماضويتان. لذا علينا صناعة فكر التحول الذاتي الضروري للنجاة من العبودية الثنائية. إنها أفكار لمستقبل نشاهد تحدياته، والعمل له ضروري، وإلا بقينا في حمأة صراع داخلي مستمر لا نهتدي إلى مخرج منه. وإن من عناصر هذا المخرج تحرير العقل من الركون المفرط فيه لأي من السلفيتين، والحذر من الضجة الإعلامية المرافقة لكل موجة، فهي غواية وتضليل ما دامت لا تنزل على حل وسط، وعلينا الدعوة إلى حياة جديدة وثقافة متزنة بين الماضيين وبين مستقبلنا، فنعدُّ السلفيتين وثقافتهما من الماضي، ونبني لنا في زماننا معرفة تتخلص من سموم الماضيين.